www.awu.sy

الأسبوع الأدبي

جريدة تعنى بشؤون الأدب والفكر والفن
تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد «1341» 2013/4/20 م - 10جمادى الآخرة1434هـ
السنة السابعة والعشرون

٢٤ صفحة - السعر: ١٥ ل.س

مساحة للمعرفة.. قوّة التصوّر

من أين يستمدون شريعتهم؟!
شيوخ الشاشات.. رجال دين أم دعاة فتنة؟!

عن المبدع والحريّة «استحضار الشخصيّة التراثية»

الفرويديّة: ألق العلم وسحر الخرافة

الشهيد

شيخوخة نابضة

لوحة للفنان التشكيلي ماريو موصلي

إشراقات

عيد الشهادات

أغنية الأصالة

هذا الحب

بيان اتحاد الكتاب العرب واتحاد الصحفيين في سورية بمناسبة ذكرى الجلاء السابعة والستين

تطل ذكرى جلاء الاحتلال الفرنسي عن الأرض السورية العزيزة والنفوس لهفى للمعاني الوطنية الخالدة نقشاً في مدونة التاريخ، والسمو، والنبل، لهفى للبطولات العظيمة التي قدمها الأجداد ذوداً عن الكرامة، والعرض، والأرض، والتاريخ السامي.

تطل ذكرى الجلاء العظيمة.. فتطل معها قامات فارعة في الوطنية والانتماء.. وتزدهي بمعاني المروءة والتضحية والفداء.. وهي تتجسد بأولئك الرجال العظماء أمثال: يوسف العظمة، وسلطان باشا الأطرش، ومحمد الأشمر، وحسن الخراط، وأحمد مريود، وإبراهيم هنانو، وصالح العلي، وسعيد عكاش ومحمد الملا، وحسن وطفة، ورمضان شلاش، فهم من حمل راية الكفاح عالية خفاقة في تاريخ سورية.

تطل ذكرى الجلاء.. وفي القلب غصة، لأن الوطن يتعرض لمؤامرة وعدوان سافر ليس له نظير منذ سنتين ونيف للنيل من الموقف الوطني والانتماء القومي، وثقافته المقاومة تجاه الأعداء التاريخيين الذين اغتصبوا الأرض، وزيفوا الحقائق، وهددوا الأوطان فجيوش الاحتلال الفرنسي التي قادها الجنرال الفرنسي غورو عام 1920 لم ترعب أبناء الشعب بكل فئاتهم وشرائحهم وطوائفهم ومذاهبهم وتوجهاتهم.. ولن تستطيع جيوش العالم وحلفاؤها أن تضعف عزيمتهم في التصدي لكل عدوان، فالدفاع عن الوطن وحمايته من كل شر واجب عليهم، صغاراً وكباراً، ونساءً ورجالاً...

وحين تطل ذكرى الجلاء.. على أبناء سورية العظيمة بتاريخها، وثقافتها، وموقعها، وحضارتها، وأبنائها.. فإنهم يرون أن قادة التحالف الرجعي العربي الصهيوني يمارسون تدمير النسيج الاجتماعي السوري، وزعزعة الموقع الوطني، ويعملون على شطب ثقافة المقاومة من حياتهم.. لكن وعي أبناء شعبنا البطل بكل مكوّناته العظيمة..

ردّ تلك الأهداف الشريرة إلى نحور أصحابها.. إن بشائر النصر على قوى الشر الباغية.. تلوح من فوق ربوع سورية من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها..

إننا في اتحاد الكتّاب العرب، واتحاد الصحفيين في سورية.. إذ نقدم أجمل التهاني لأبناء شعبنا العربي السوري بمناسبة ذكرى عيد الجلاء السابعة والستين.

ندعو أبناء وطننا وأمتنا للاستجابة إلى نداء الوطن والانخراط في العملية السياسية عبر الحوار البناء الذي يساهم في بناء سورية المتجددة وفق الرؤى والأفكار التي طرحها السيد رئيس الجمهورية الدكتور بشار الأسد في خطابه الذي ألقاه بتاريخ 2013/1/6.

ونؤكد للجميع أن الوطن سينتصر على الهجمة الدموية الرجعية الجهلاء الظلامية.. كما نؤكد، في الوقت نفسه، على أهمية ما سيقوم به الكتّاب والأدباء والصحفيون من أدوار وطنية كبيرة، استكمالاً لأدوارهم الثقافية والإعلامية المشرفة، وقد قدّموا الشهداء قوافل قوافل، من أجل عزة الوطن وكرامة أبنائه.. فدور الكتاب والأدباء والصحفيين من الأدوار الوطنية الحاسمة لأنهم طليعة متقدمة من طلائع الثقافة والوعي والبناء، ومسؤوليتهم تجاه ما يحدث مسؤولية وطنية كبرى يعوّل عليها كثيراً.

المجد والخلود لشهداء سورية

والنصر للشعب العربي السوري

- **اتحاد الكتاب العرب**
- **اتحاد الصحفيين**

أمريكا ومعايير الربح والخسارة

خلف علي المفتاح

تشير أغلب الدراسات الاستراتيجية المتعلقة بمستقبل العلاقات الدولية أن الولايات المتحدة الأمريكية ستبقى القطب الأهم وليس الوحيد في المشهد الدولي لسنوات قادمة، وهذا يعني أنها ستكون لكثير من الدول شراً لا بد منه، وهذا يقتضي التفتيش في دهاليز السياسة الأمريكية ومطابخ صنع القرار فيها، لأن المنطق السياسي، وبالتجربة، يشي بأنه من الصعوبة حتى تاريخه إقامة علاقة صداقة حقيقية عربية أمريكية، ومن غير الحكمة الدخول في عداء مطلق معها، من هنا تبدو حساسية الموضوع ودقته عند تصميم سياسات خارجية فاعلة وعقلانية.

إن الولايات المتحدة الأمريكية كدولة وإمبراطورية تشكل ظاهرة غريبة من حيث الولادة والتشكل والاستمرار، وربما كانت الدولة الوحيدة في العالم التي ترى تاريخها في مستقبلها؛ حيث لا ماضٍ حقيقي لها عند الحديث عن الزمان والمكان والإنسان، لأنها أشبه ما تكون بمولود جاء بعرس جماعي يعرف بتاريخ ميلاده أكثر ما يعرف بنسبه وخريطة جيناته، إن كل هذا لا يعني شيئاً بالنسبة إلى الأمريكي الذي لا يعذب نفسه بلغة العواطف وحديث الذكريات؛ لذلك كله بنيت السياسة الأمريكية على لغة الأرقام وحسابات الربح والخسارة من دون التقليل من شأن مبادئ ولسون وما يعنيه تمثال الحرية في يوم من الأيام.

فالذهنية الأمريكية تجيد أسلوب الأخذ لا العطاء، وتتعامل مع غيرها إن استطاعت بطريقة الربح المركب، وإن كان ثمة خسارة بالدم في أية مغامرة فلا بأس أن تكون من دماء الغير لا من دماء الأمريكيين، وعندما تنحصر في دماء الأمريكيين فثمة حسابات أخرى وجدول أفضليات، وهنا يمكننا الاستعانة بأرقام القتلى الأمريكيين في الحرب العالمية الثانية وحرب فيتنام؛ ففي الأولى كانت نسبة القتلى من الزنوج تربو على خمسة وثلاثين بالمئة، وفي حرب فيتنام تجاوزت الخمسين بالمئة؛ علماً أن نسبة الزنوج في أمريكا لا تتجاوز اثنا عشر بالمئة من مجموع السكان، ما دعا زعيم حقوق الإنسان في ستينيات القرن الماضي القس مارتن لوثر كينغ، الذي اغتيل عام ثمانية وستين إلى القول إن حرب فيتنام كانت مذبحة كلف فيها الرجل الأسود بقتل الرجل الأصفر، ويقصد بذلك الفيتناميين وأبناء جنوب شرق آسيا.

إن الحديث عن شرور الإمبراطورية الأمريكية لا يلغي حقيقة أنها دولة عظيمة وكبيرة وقوية، وقدمت إسهامات حضارية كبيرة، وشكلت الملاذ لآلاف المنفيين والباحثين عن الحرية والثروة في آن معاً، وقدمت نموذجاً في العيش المشترك لا يفرق بين الديانات والمذاهب وبلد المنشأ إن جاز التعبير، ولكن لابد من نقد ذلك النموذج انطلاقاً من سياساته واستراتيجياته الكونية، التي ألحقت الأذى بملايين البشر، والكثير من شعوب الأرض على قاعدة الأمل في تعديل السلوك وتحديد أدوات تنفيذ الاستراتيجيات، وأهمية تفضيل النموذج الأخلاقي والإنساني بأدواته العملية والاقتصادية، بدل القوة العسكرية، أي القيادة بالأخلاق لا بالإكراه، كما هو حاصل في عالم اليوم الذي تتقدم فيه القوة الصلبة على القوتين الناعمة والذكية حسب المفاهيم الاستراتيجية الأميركية.

إن طرح عناوين وتساؤلات وفي الداخل الأمريكي وعبر مراكز الدراسات والبحث والاستقصاء ووسائل الإعلام من قبيل: لماذا يكرهوننا؟! والبحث عن إجابات حقيقية في أكثر من مكان في العالم، يشير إلى أن البحث الجدي في تغيير أسلوب التعاطي الأمريكي مع شعوب العالم بدأ يطرح نفسه بقوة في مراكز صناعة القرار في بلاد العم سام، ولعل القارئ الموضوعي لما يجري على الساحة السياسية الأمريكية في عهد الرئيس أوباما وتوجهاته العامة في فترة رئاسته الثانية، والحديث عن إسناد مهام لمفاصل هامة في المؤسستين العسكرية والخارجية لشخصيات تحسب على ما يسمى في الخطاب الأمريكي من الحمائم، وليسوا من الصقور، يجعل المتابع للشأن الأمريكي يراهن على ذلك، ولكن في حدود دنيا، ودونما رفع في درجة التفاؤل؛ لأن المسألة ما زالت في حدود التوقعات والرهانات التي تترقب التطبيق الفعلي والعملي، وهذا ما نتركه للقادم من الأيام؛ خاصة وأننا في بدايات عام جديد.

من أين يستمدون شريعتهم؟!
شيوخ الشاشات.. رجال دين أم دعاة فتنة؟!

باسمة محمد حامد

لم يدخر الإعلام «النفطي» المنخرط في مشروع «الفوضى الخلاقة» وسيلة إلا اتبعها للترويج لظاهرة «الربيع العربي»؛ غير أن أخطر تلك الوسائل على الإطلاق كان استخدام «أصحاب العمائم واللحى» في الأزمة السورية؛ حيث انبرى هؤلاء بقصف عشوائي على العقول والضمائر عبر تسويقهم لخطاب تحريضي مقيت، هدف إلى تسعير الاقتتال الطائفي لحرف بوصلة الصراع العربي-الصهيوني عن وجهتها الحقيقية.

ولأن الدين شيء جوهري وأساسي في المجتمعات العربية، أتاحت فضائيات «الرأي والرأي الآخر» أي رأي «طويل العمر ورأي الكنيست الإسرائيلي» منابرها لكل من هب ودب من «شيوخ ودعاة ورجال دين» للإفتاء بضرورة إسقاط النظام وهدر دم رموزه، بحجة أنه «يقتل شعبه»، وهي الوصفة الجاهزة التي حاولت الدول المعادية لسورية تعميمها –دون هوادة- على المشاهد العربي لتحقيق أهداف سياسية لم تعد خافية على أحد.

وبتحليل الخطاب الذي ظهر على لسان «شيوخ الشاشات ومشايخ الأطلسي» حول الوضع السوري، سنلاحظ أنهم ترجموا حرفياً كل ما تطلبته الأجندة السياسية «للربيع الصهيوني» عبر تبنيهم الأعمى لرأي «طويل العمر» ورأي «الكنيست الإسرائيلي»!!

فعن سبق الإصرار والتصميم تعامى أصحاب العمائم هؤلاء عن الممارسات الإجرامية للأنظمة الحاكمة في البحرين والسعودية وقطر ضد معارضيهم؛ وركزوا خطاباتهم على الوضع السوري على نحو لا ينفصل عن سياق السياسات العدائية التي انتهجتها دول النفط منذ اللحظات الأولى لبدء الأزمة، حيث أخذ هؤلاء على عاتقهم مهمات عدة وهي:

1- نزع الشرعية عن النظام، وإصدار عشرات الفتاوى لإسقاطه و«شيطنة» رموزه، واستهداف قياداته السياسية والعسكرية، وبخاصة تلك التي تنتمي إلى خط المقاومة.

2- رفض الحوار مع العلماء ورجال الدين الموالين للنظام للوقوف على حقيقة ما يجري، والادعاء أنهم «بوق السلطة».

3- إضفاء الشرعية على نهج المعارضة المسلحة وتشجيعها وتسويغ كل ما تقوم به من جرائم بحق المواطنين السوريين، والدعوة إلى دعمها وتقوية شوكتها ومدها بالمال والرجال والسلاح.

4- شخصنة التهجم على القيادة السورية العليا بلا أي ضوابط أو خطوط حمر!

5- رفض منطق الدولة السورية الداعي إلى حل الأزمة بالإصلاحات والحوار السياسي.

6- اعتماد اللغة المذهبية والتحريض على العنف الطائفي، وضرب مفاهيم الوحدة الوطنية؛ مما ساهم في خلق التوتر وانزلاق البعض للفوضى والتخريب وحمل السلاح .

7- التناغم مع ما طرحته فضائيات «النفط» من حلول «كارثية» للأزمة التي بدأت بإسقاط النظام ثم تنحي الرئيس، فالمطالبة بتسليح المعارضة والمناطق العازلة والحظر الجوي والتدخل الخارجي؛ وإصدار قرارات من مجلس الأمن تحت الفصل السابع.. وهي حلول لم تكن حاضرة في ذهن المواطن البسيط قبل أن يتبناها الإعلام الصهيوني الناطق بالعربية، ويتناولها بكثير من البحث والتحليل والشرح والتفسير.

لكن اللافت في الأمر هو أن معظم المنخرطين في هذا النوع من الخطاب هم آخر من يحق لهم التباكي على الشعب السوري، والمتاجرة بدمه، على اعتبار أنهم ليسوا «قديسين» ولا «أنبياء» ولا معصومين عن الخطأ، وهم أيضاً ليسوا وكلاء الخالق على الأرض، ولا يملكون «مفاتيح الجنة» ولا «أبواب جهنم».. وإذا ما بحث المرء في ثنايا سيرهم الذاتية ومواقفهم من قضايا الوطن والمواطن لوجد العجائب والغرائب.

«فالشيخ» السعودي عائض القرني الذي أعلن جهاراً نهاراً تفضيله «نتنياهو» على الرئيس السوري، وأفتى بقتاله «كأولوية أكثر من قتال إسرائيل»، متهم بالسرقات الأدبية في أكثر من موضع، فصاحب كتاب «لا تحزن» ثبت أنه سرق أفكار الشيخ محمد الغزالي الواردة في كتابه «جدد حياتك»؛ كما أن وزارة الثقافة والإعلام السعودية تنظر في شكوى تلقتها من الكاتبة سلوى العضيدان، تتهم فيها الداعية المذكور بالسطو على كتابها «هكذا هزموا اليأس» !

وإذا كان القرني «سارقاً».. فشيخ «الربيع العربي» القرضاوي صاحب نظرية «ومالو؟» يعاني من أعراض الازدواجية الفكرية؛ فالرجل حين يخطب عن مصر بعد «مبارك» يشدد على أهمية الوحدة الوطنية بين الأقباط والمسلمين وبين السلفيين والعلمانيين، ويدعو المتظاهرين إلى العمل والخروج من الميادين .. لكنه حين يخطب عن سورية يناقض ذاته فيشدد على الاقتتال الطائفي، ويركز على أهمية «الجهاد» عبر قتال النظام حتى إسقاطه، ودعم «الثوار» بكل الوسائل!!

وهو بازدواجيته اللافتة تلك يتلاقى مع مفتي السعودية «صالح اللحيدان»، الذي أجاز قتل «ثلث الشعب السوري ليهنأ الثلثان»؛ بينما وصف المظاهرات المناوئة لنظامه بأنها «ضلال مبين»؛ وقال فيها :»التجمعات التي تقوم ضد ولي الأمر أو أحد نوابه هي ضلال مبين، وهي تجمعات لا تصح «!

وهنا تكمن الكارثة الحقيقية؛ فالإعلام «النفطي» بتخليه عن دوره كناقل للحدث وممارساته الخارجة عن حدود القيم الإنسانية والأخلاقية، نجح – عبر هؤلاء- بتشويه الإسلام كدين محبة وسلام، وكشريعة إلهية تعتز بالجهاد في سبيل الله، وتعدّ التسامح والتصالح والعفو عند المقدرة أحد أهم الصفحات المشرقة في تاريخها وحضارتها.

.. ففي شريعتنا «الصلح خير» ؛

..وفيها كذلك «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما وقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله»؛

وفيها أيضاً :»إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم»؛

لكننا لا نجد أي مقاربة لهذه المعاني السامية في خطب أصحاب العمائم الذين اعتلوا منابر «الجزيرة والعربية» على مدى العامين الأخيرين ولو من باب المصادفة!

فمن أين يستمد هؤلاء شريعتهم؟

وأين هم من قول الله تعالى :»ألا لعنة الله على الظالمين»؟؟!

وما هي الفتوى الشرعية حول المال الذي يحصلون عليه مقابل نشر فكرهم التكفيري والمذهبي في الكتب والمحاضرات والمؤتمرات والندوات التلفزيونية؛ أهو حلال أم حرام؟!!

الافتتاحية

حسين جمعة

الجامعة العربية ... إلى أين؟

إن قراءة متأنية لقرارات الجامعة العربية الأخيرة منذ (2011/11/17م) ونتائج اجتماع مجالس وزراء خارجيتها وقمتها المشهورة في الدوحة تشي بكل وضوح أن دور الدول العربية الكبرى مثل مصر والسعودية قد تراجع لحساب إمارة قطر العظمى؛ فلم يعد لهما طموح إلا إرضاء أمير ملوك الطوائف، ولاسيما بعد أن بات همه الوحيد محاربة سورية قيادة وشعباً، ولو قام بأدوار مشبوهة بحجة دعم المعارضة؛ وثورتها المسلحة؛ مدعياً مساندة الديمقراطية وحقوق الشعب السوري...

ولهذا سنترك مفهوم التدخل في الشؤون الداخلية لسورية؛ وسنترك سياسة الكذب والخداع التي تمارسها قطر رغبة منها بنقل المعارك إلى خارجها لئلا تصل إليها؛ محتذية بذلك حذو الإدارة الأمريكية التي تنقل معاركها إلى البلدان والشعوب مثيرةً الفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية بين أبنائها لتأجيج نار الحقد والكراهية بينهم؛ ومن ثم الاقتتال وتدمير ما بنوه بأيديهم، لتصبح مواردهم لقمة سائغة للدوائر الغربية ـ الصهيونية. فهذه الدوائر أفادت من دروس التدخل القاتل في أفغانستان والصومال والعراق ولبنان... وليبيا، وانتهجت منهج تصدير الحرية والديمقراطية إلى الخارج لمصالحها خاصة.... وألبست سياستها المخادعة عباءة شرعية تارة بدعمها أي مؤسسة أو مؤتمر إقليمي أو دولي يحقق لها ذلك، أو باللعب على التناقضات الداخلية بين الشعب وقيادته... تارة أخرى.

هكذا تدخلت الولايات المتحدة في الدول المشار إليها؛ وهكذا هو حالها في سورية حين أوعزت إلى بعض حلفائها؛ وإلى شخصيات فاعلة في الجامعة العربية بتنفيذ ما هُيّئوا له.... فالجامعة العربية كما ظهرت في اجتماع وزراء خارجيتها بالقاهرة في (2013/3/6م) وبالقمة الرابعة والعشرين التي عقدت في الدوحة ـ برعاية إمارة الغاز ـ يوم الثلاثاء (2013/3/26م) وفَّرت بقراراتها للإدارة الأمريكية وغيرها الفرصة الذهبية للتدخل الخارجي في سورية... ولا شيء أدل على هذا من نتائج زيارة (أوباما) للمنطقة؛ التي أوضحت أن الإدارة الأمريكية عادت إلى تبني مقولاتها التي ظهرت مع بداية الأزمة السورية... وفي طليعتها نغمة طلب تنحي السيد الرئيس؛ والدعم بالمال والسلاح والمساعدات اللوجستية لطرف من أطراف المعارضة انحازت إليه انحيازاً مطلقاً على حساب الآخرين؛ وعلى حساب سورية ذاتها،... وعللت ذلك بحجة الوصول إلى التوازن بين الدولة والمعارضة بشأن السلاح كما ظهر على لسان أمين الجامعة العربية في مؤتمره الصحفي بعد القمة المذكورة؛ ما يجعلنا نقول: مجنون يتكلم وعاقل يسمع!!!

ولست الآن بصدد الحديث عن إعطاء مقعد سورية في الجامعة لهذا الطرف المتشدد من إئتلاف الدوحة أو ذاك، ولكني بصدد ذكر بعض ما انتهت إليه القمة في بيانها حول التشدق بالعمل العربي المشترك حين أعربت عن رغبتها في (إنهاء الخلافات العربية، وتعزيز التضامن العربي، وتوطيد العلاقات بين دول الجامعة)... فكيف يمكن للجامعة أن تحقق ذلك؛ اللهم إلا إذا كانت قد منحت إشارة البدء في تخريب المجتمع العربي؟. وهذا يدفعنا إلى تساؤل آخر: ما الذي فعلته بقرارات قمة الجزائر عام (1973م) التي فرضت عليها دفع العمل العربي المشترك لتحرير مدينة القدس من الأيدي الصهيونية المجرمة؟ وما الذي فعلته لهذه المدينة وقد انتهكت حرمتها بتهويد مقدساتها وأسمائها وشوارعها، وأضحى المسجد الأقصى فيها مستباحاً يدنسه الصهاينة كل لحظة؟...

إن من يدقق في قرارات الجامعة وأفعالها يدرك أنها غدت تابعة لأمير يقودها من الدوحة وهو الذي لم يتورع عن إقامة علاقة وطيدة بدولة الكيان ... وبين هذه الدولة المصطنعة وبين قطر ـ مثلاً ـ علاقات سياسية واقتصادية لا تخفى على أحد؛ فلا يستغرب أن تُدعى لاحقاً إلى القمة، كما حصل أن حضرت تركيا في قمة الدوحة؛ وغُيّبت عنها سورية.

ثم من منا ينسى أن الدولة اللقيطة قد أغرقت المعارضة السورية بالسلاح النوعي والمتقدم من نتاجها ونتاج غيرها؛ بعد أن موّلته قطر والسعودية عبر الأردن وتركيا كما جاء في موقع (غلوبال ريسيرتش)؟!!. ومن ثم فهناك علاقة قوية بين دولة الكيان وعدد من دول الخليج ترتقي إلى منزلة الحلف الاستراتيجي؛ كونها أضحت محميات أمريكية؛ يُمنع الاعتداء عليها كما

البقية.....ص22

ثقافة الأطفال.. أهميتها، وسائطها، ومشكلاتها

عبد المجيد إبراهيم قاسم

تُعرَّف مرحلة الطفولة بأنها أهمُّ المراحل في حياة الإنسان، وأكثرها تأثيراً في تشكيل وعيه ووجدانه، وبناء شخصيته من النواحي الجسدية والنفسية والفكرية. وتكمن أهمية هذه المرحلة - التي نعني بها المرحلة الممتدَّة من الولادة إلى بداية المراهقة - بأنها مرحلة البناء والتكوين للقيم والمفاهيم والمهارات الأساسية. لقد كان يُنظر إلى الأطفال فيما مضى على أنهم رجال صغار، عليهم خوض غمار الحياة ومواجهة صعوباتها بذهنية الراشد وطرائقه. لكن إثر التطوّرات الهائلة التي شَهدتها وتشهدها العلوم في المجالات كافّة، والتي غيَّرت وجه العالم، والتغيرات التي طرأت على النظريات التربوية، ثبُت أن الأطفال ينتمون إلى عالم يختلف عن العالم الذي ينتمي إليه الكبار، وأنَّ لهم قدرات وحاجات وميولاً خاصَّة بهم، فأدركت الأمم والشعوب - بإدراكها تلك الحقائق - قيمة هذه المرحلة، وأخذت تهتمُّ بتربية أطفالها، وتوليهم الرعاية الكافية، نفسياً وثقافياً واجتماعياً، الخ. حتى عُدَّ هذا الينبوع الإنساني أهمَّ ثرواتها، وأهم روافد قوَّة مجتمعاتها؛ بل وأسمى الغايات التي تنهض بها إلى التطوّر والتقدّم، كما عُدَّ ذاك الاهتمام مؤشِّراً على تقدّمها ورقيِّها، ومقياساً لمكانتها بين مصافِّ نظيراتها. وفي ظلِّ تلك المتغيرات والتطوّرات، ومع تجدُّد المفاهيم حول عالم الطفولة، وتبدُّل النظرة إليها، أصبح الاهتمام بتربية الطفل ثقافياً؛ هدفاً استراتيجياً وتنموياً، ومن الضرورات التي تجهد في مجالاتها الأمم، كونها تحمل رسالةً عظيمة في مضمونها؛ وكبيرةً في محتواها. فالتربية الثقافية التي يتشرَّبها الطفل اليوم؛ هي التي ستوجِّه طبيعة سلوكه، وتخطُّ مسار حياته واتجاهاتها مستقبلاً.

مفهوم ثقافة الأطفال:

تتضمن الثقافة كمفهومٍ عام: مجموع المعارف والأفكار، والفنون والآداب، والعادات والتقاليد، والقيم، وكلّ ما يكتسبه الفرد من محيطه. وثقافة الأطفال -كمجال من مجالات الثقافة عموماً- نعني بها: مجمل الأعمال الأدبية والتعليمية والترفيهية الموجَّهة للأطفال، تلك التي يضعها الكبار غالباً، والمختلفة عن ثقافتهم كمَّاً ونوعاً، بهدف بناء شخصياتهم، وتنمية مكوِّناتها وقدراتها، وبما يناسب إمكاناتهم، ويلبي حاجاتهم. يعرف «عبد التواب يوسف» في كتابه «تنمية ثقافة الطفل» ثقافة الطفل بأنها: «خليطٌ ممّا يرثه من أبويه وأسرته، وما يصله من عادات وتقاليد، وما يكتسبه من معرفة وعلم، وما يتأثَّر به من فنون وما يمارسه منها، وما يعتقد فيه ويؤمن به وما يتَّصف به من خلق، وما تتميَّز به شخصيته من ملامح، وكل ما يسود في مجتمعه من أفكار وآراء وقوانين؛ وما يشيع فيه من ثقافة عامة».(1)

الثقافة هي صنيعة البيئة والمجتمع، وحاملةُ خصوصيَّته المتفرِّدة، وهي وليدة التواصل بين طرفين؛ الإنسان، والبيئة المحيطة به، التي تعدُّ أهم العوامل المؤثِّرة فيها. فإذا كانت الثقافة التي تُقدَّم للطفل في مجتمع ما؛ هي المستمدة من ثقافة ذاك المجتمع، والمتمثِّلة لأسلوب الحياة السائد فيه، فإن ذلك لا يعني بأنها تبسيطٌ لما هو سائد، أو أنها نقلٌ عن ثقافة الكبار مع التسهيل، إنما هي عملية قائمة بذاتها، تملك ما يميِّزها من الخصائص عن ثقافة الراشدين. ومن جهة أخرى؛ ورغم أن الثقافة الطفلية يحكم آلياتها إطار عامٌّ مشترك، إلا أنها لا تتَّخذ طابعاً واحداً. فالأطفال يختلفون باختلاف أطوار نموِّهم، ويتمايزون بحسب المراحل التي يعيشونها. كما أنها تتأرجح تبعاً للظروف الاقتصادية والاجتماعية والعلمية الخاصة للأسرة الواحدة. لذا كانت الحاجة إلى ثقافة خاصّة لكل طور من أطوار الطفولة، ومدى ملاءمتها لكلٍّ منها ولاحتياجاتها، والحاجة إلى انسجام المنتج الثقافي مع مستوى الطفل -أسلوباً ومضموناً ولغةً- كي تكون ذاتَ فائدة ومتعة وترفيه في الآن ذاته، كما هو مطلوب منها.

أهمية ثقافة الأطفال، وأهدافها:

ينفر الأطفال -بطبيعتهم- من طرائق التعليم التقليدية؛ التي تعمل على ملءِ أذهانهم بالمعارف النظرية الجامدة، وتقدِّم النصائح الأخلاقية الجاهزة, بأساليب الحفظ والتلقين، التي تقتل ملكات الإبداع لديهم. لذا فبالإمكان؛ ومن خلال أساليب بثِّ الثقافة -التي تنأى عن الطرق تلك وطرائقها- تعليم الطفل وتهذيبه، وإكسابه طرائق التعلّم؛ بالوسيلة التي يحبُّها قلبه وتختارها أحاسيسه، وإيصال ما نبغي إيصاله من أفكار وقيم وعادات بالأداة التي تروقه وتعجبه. كما أن الطفل مفطورٌ -أيضاً- على حبِّ التعرّف والاستطلاع، وامتلاك دوافع قويَّة للاستكشاف والانبهار والتخيُّل، وعشق مواقف البطولة والمغامرة، والميل إلى التقليد، وتمثيل الأدوار؛ لذا نستطيع إرضاء دوافعه وميوله؛ بأساليب الثقافة الحديثة والمتنوِّعة، وأن تستثمر رغباته الفطرية لحدودها القصوى، وهنا تكمن الأهمية الأخرى لثقافة الأطفال. أما أهداف الثقافة الطفلية فإنها لم تعد اليوم مجرَّد معارف يحقن بها الطفل فحسب، بل أصبحت منظومة متكاملة، تشتمل على مختلف جوانب حياته؛ إذ إنها تعمل على تحقيق أهداف التربية؛ في بناء شخصيته المتكاملة والمتوازنة، عقلياً ونفسياً ووجدانياً وسلوكياً، من خلال الإسهام في إثراء فكره شعوره، وتنمية خياله ولغته، وتعديل سلوكه وتصرفاته. وتأصيل روح الإبداع والابتكار لديه. كما تهدف ثقافة الأطفال إلى إكسابهم العديد من المهارات الاجتماعية، وإطلاعهم على البيئة المحيطة بهم، وإلى فهمٍ أفضل للحياة، وعلاقة أكثر ايجابية مع الآخرين.

أهم اعتبارات ثقافة الأطفال:

- الاعتبارات التربوية: ثقافة الأطفال مسألة تربوية في المقام الأول، وعمل تربوي يتمتَّع بالشمول والاستمرارية. وتعني هذه الاعتبارات تقديم المادَّة الثقافية بما يلائم الخصائص السيكولوجية واللغوية لهذه الشريحة، وما يناسب قدراتهم ومداركهم، ويراعي الفروق الفردية والاجتماعية بينهم.

- الاعتبارات اللغوية: وتعني أن تكون اللغة -في العمل الثقافي الموجَّه للطفل- سليمةً سهلة، بسيطة واضحة، نابضة بالحيوية والإبهار. وأن تخاطب وجدانه وخياله، وتنفذ إلى قلبه بسهولة ويُسر. وأن تناسب مضمون العمل أولاً، ولغة الطفل ثانياً.

- الاعتبارات الفنيَّة: وهي أن تتَّسم المادَّة الثقافية بمستويات راقية من حيث فكرتها وأسلوبها وإخراجها. وأن تكون محاطة بالتشويق والإمتاع, وقادرة على جذب الطفل وبثِّ المرح في نفسه. يقول «عبد التواب يوسف»: «إن الثقافة يجب أن تكون كالغذاء الجيد والعصير اللذيذ، أي متعة.. سواءً كانت قطعة موسيقية، أو قصة جميلة، أو رواية رائعة. ولهذا تجمع الثقافة ما بين الآداب والفنون من جانب، والعلم والمعرفة من جانب آخر، ويظلُّ شرط المتعة قائماً باستمرار وإصرار». (2)

وسائط ثقافة الأطفال:

لم تعد الأسرة والمدرسة وحدهما مصدري الثقافة والمعرفة؛ بل إن الطفل أصبح يتلقّاهما عبر وسائط أو وسائل متعدِّدة. والوسيط في ثقافة الأطفال هو كلُّ أداة تُستخدم في تقديم المادَّة الثقافية أو الأدبية باختلاف أجناسها. ولوسائط ثقافة الطفل اعتبارات وخصائص؛ تختلف عن خصائص وسائط ثقافة الكبار. كما أن لكل وسيط طبيعة مختلفة عن طبيعة الآخر؛ إلا أن الجيِّد منها هو الذي يلائم طبيعة الطفل وينمي اهتماماته، ويقدِّم له صوراً ومواقف واقعية عن الحياة. وهذه الوسائط تتعدَّد وتتنوَّع، ابتداءً بالكتاب المطبوع -أهم أنواعها، ونواة الثقافة الأولى- وصولاً إلى بعض وسائل الاتصال الحديثة كالانترنت، مروراً بالصحيفة والتلفزيون والسينما والإذاعة والفيديو والمسرح والمتحف والمعرض والرحلات والمعسكرات الترفيهية.

من أهم وسائط الثقافة المقروءة: الكتاب والمجلة، وهذا النوع يستخدم المطالعة كوسيلة اتصال وتأثير، ميِّزته أن الرسالة فيه تبقى ثابتة، يمكن الرجوع إليها عند الحاجة. ومن أهم الوسائط المسموعة: الإذاعة والأسطوانات. أما أهم الأشكال المسموعة والمرئية فهي: التلفزيون والسينما والفيديو، وهذا النوع الذي يعتمد الصوت والصورة، ويملك درجة عالية من التأثير والفعالية؛ لأنه يتوجَّه إلى حاسَّتي السمع والبصر.

1) الكتاب: أولى وسائط تقديم الثقافة للطفل وأقربها إليه. فالقراءة توفر أكبر مورد لتنوّع ثقافته؛ بحسب ما أكدته كثيرٌ من الدراسات. مما يُلح على قيمة الكتاب كوسيلة لا غنى عنها رغم تقدّم الوسائط الأخرى. ومن أهم شروط كتاب الطفل:

المضمون: وما يطرحه من قيم وأفكار، ومدى تحقيقه للاعتبارات التربوية والنفسية والتذوّقية، ومدى التزام الكاتب بها.

الإخراج والشكل: يلعب دوراً هاماً في جذب الطفل، وتشويقه إليه، وتنمية حبّه للمطالعة. كأن يكون حجم الكتاب مناسباً، وغلافه جذّاباً شكلاً ولوناً، وأن يحتوي على رسومٍ ملوَّنة ومعبِّرة.

2) التلفزيون: يعدُّ منْ أهم مصادر ثقافة الطفل، وأكثرها جذباً وإمتاعاً له؛ إذ يجمع بين الصوت والصورة، واللون والحركة. وبحكم طبيعة الطفل المولعة بالاستكشاف وبالجديد والمبهر، فقد استأثر بحيزٍ كبير في نفسه ومن وقته أيضاً. والتلفزيون ليس وسيلة لتزويد الطفل بالمعلومات والأفكار والقيم فحسب؛ بل أداة تمتلك شيفرة التأثير في فكره وشعوره، وتكوّن وعيه الثقافي والقيمي والسلوكي؛ إذ إنه يخاطب ملكات الطفل, ويحفِّز ذكاءه، ويكسبه المعرفة والاطِّلاع. ويسهم إسهاماً مفيداً في البناء التربوي للطفل؛ إذا مكَّناه من الاستفادة من البرامج الجيدة والمفيدة كبرامج التعليم المبسَّطة، وموضوعات الحيوان والطبيعة، وأفلام المغامرات الشيِّقة، والقصص العلمية المناسبة.

3) المسرح: قناةُ اتصال فكرية وثقافية واجتماعية، لا يختلف اثنان على أهميتها، ويكفي الاستشهاد بمقولة للشاعر الاسباني «لوركا» عندما قال إنه: «ترمومتر تُقاس به عظمة البلاد». وللمسرح في حياة الطفل دورٌ كبير، فهو يوسّع ثقافة مشاهديه، ويسهم في تنمية مداركهم العقلية، ويدرِّبهم على ضبط انفعالاتهم وتفريغ شحناتهم العاطفية، ويبعث في قلوبهم مشاعر المتعة والفرح. إلا أن أهم مزايا المسرح تتمثَّل في التجسيد الحيِّ للمواقف، وما يحقِّقه من تفاعلٍ وتأثير أولاً. وفي المزج بين الكثير من

الفنون الإنسانية، كالتمثيل والإلقاء والحوار والاستعراض، والغناء الخ، حتى عرف بأنه أبو الفنون كلها، وتنوّع المؤثرات التي تعتمدها عروضه كالموسيقى والضوء والصوت والإضاءة والألوان والديكور.. الخ ثانياً. وفي تعدُّد أنواعه، كالمسرح المدرسي، ومسرح العرائس، ومسرح الظلّ، وتلوّن أشكاله، كالمسرح الغنائي والشعري والنثري والحواري.. ثالثاً.

4) المجلَّة: وسيلة ثقافية هامَّة في حياة الأطفال؛ فهي تحسّن مهاراتهم القرائية، وتزيد في حصيلتهم اللغوية، وترقى بتذوقهم الفني والجمالي، من خلال ما تقدِّمه من قصص وأشعار وعلوم، وموادَّ ثقافية متعدِّدة ومتنوِّعة، وما تحقِّقه من تفاعل بين قرائها.

5) الإذاعة: للكلمة المسموعة دورها في رفد الطفل بالثقافة، والإذاعة وسيلة إعلامية تعتمد الكلمة، وتستخدم المؤثرات الصوتية، التي تداعب خيال الطفل عبر تحويل الكلمات إلى صور صوتية نابضة بالحياة. فتسهم في التعليم والترفيه والتذوّق عبر فقرات برامجها، التي تتنوَّع بين الغناء والموسيقى والقصص والحكايات، وبرامج التعليم والترفيه والتواصل المتنوعة. كما أنها تملأ أوقات فراغ الطفل بالمفيد والممتع، وتكسبه جملة من المهارات المختلفة، كالتدرّب على الخطابة والنطق السليم، وحسن الاستماع والإصغاء.

6) السينما: وسيلة اتصال جماهيرية، تملك دوراً بارزاً في نشر الثقافة وتعميم المعرفة. وتعدُّ -بعد التلفاز- من أكثر وسائل الإعلام تأثيراً في الأطفال؛ حيث الصورة المتحرِّكة والناطقة والملوَّنة. وتمتاز بالمقدرة على شدِّ انتباههم، وجعلهم أكثر تفاعلاً، واستفادةً من المادَّة المقدَّمة.

7) الفيديو: اختراع حضاري؛ ملازمٌ للتلفاز ومكمِّل له. ميزته في أنه يمكِّن من استخدام التسجيلات والبرامج التعليمية على نطاق واسع، ومن الاحتفاظ بها وعرضها في الأوقات المرغوبة.

8) المتحف: مرآةٌ تعكس حضارة الشعوب وتاريخها، وأداة تربوية وثقافية، تملك تأثيراً واسعاً في رفد الطفل بالثقافة، وتحقِّق أغراض التعرّف إلى التراث الحضاري الإنساني، والاطلاع على عادات الشعوب وتقاليدها في الفترات والمراحل المختلفة. إضافةً إلى تنمية تذوّق الأطفال الفني والجمالي. وهناك وسائط ثقافية أخرى؛ أصبحت تلعب أدواراً لا يستهان بها في

البقية.....ص22

عن المبدع والحريّة «استحضار الشخصيّة التراثية»

ثائر زين الدين

من الصعوبة بمكان أن نحاول تحديد أهمية الحرية للمبدع، لعلها العامل الأهم في إنتاج أدب معافى، أدبٍ لا يشكو من سوء التغذية، من المخافر وأدوات الرقابة التي تسكن رأس المبدع لحظة الكتابة، وهي المسألة الأشد خطورة. ومع كل ذلك علينا أن ندرك أن الإبداع كالماغما المنصهرة المضغوطة في نواة الكرة الأرضية، مهما كانت القشرة الضاغطة عليها ثخينة وقاسية لا بُدّ أن تجد لنفسها نقطة ما ضعيفة نسبياً تندفعُ منها لتظهر فوق سطح الأرض، وتملأ الدنيا ضياءً ناراً ودماراً في البداية، يستحيلُ فيما بعد خيراً وعطاءً وتجديداً للتربة والثروات المعدنية وغيرها!!

التجارب الأدبيّة الإبداعية العظيمة، التي أنتجت في مناخات قامعة، أو أقل ما يقال عنها: غير ديمقراطية, تشهد على أن القمع ـ سواء كان سياسياً أو اجتماعياً أو دينياً أو فكرياً ـ لا يستطيع مهما كان جبّاراً أن يخمد جذوة الإبداع في أرواح المبدعين، في أرواح الشعوب، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى؛ ابتداءً من «كليلة ودمنة» وصولاً إلى «أولاد حارتنا»؛ خذ مثلاً روايات أمريكا اللاتينية الرائعة كلها.. هل كتبت في مناخ ديمقراطي، من «بيدرو بارامو» إلى «مئة عام من العزلة» إلى «ساعي بريد نيرودا» إلى «بيت الأرواح» و«إيفالونا» إلى «حفلة التيس» إلى «شيطنات الطفلة الخبيثة» وغيرها.. وعرّج قليلاً على بعض روايات المرحلة السوفيتيّة: مثل«المعلم ومرغاريتا» و«بيوض القدر» و«قلب كلب» و«دكتور جيفاكو» و«الطاحونة الحمراء»، فهل نعم أصحابها بملذات الحريّة وعطاياها؟!

ثم خذ أجمل قصائد لوركا وبابلونيرودا وبوريس باسترناك ومحمود درويش ومظفر النواب وأمل دنقل ومحمد الماغوط وأدونيس؛ هل كتبت في مجتمعات ديمقراطية مُعافاة؟

بل أستطيع أن أقول إن القمع قد يصبح نعمة على المبدع على صعيد الإبداع، بقدر ما هو نقمة عليه على صعيد الحياة؛ لأنه يدفعُهُ إلى ابتكار أساليب وتقانات وطرق ما كان له في أزمنة الحرية أن يبتكرها، وأستطيع أن أضرب مثالاً جلياً على ذلك من استدعاء التراث والشخصية التراثية بالتحديد في شعرنا العربي المعاصر وأحياناً في الرواية العربية.

مسألة استدعاء الشخصيات التراثية بدأت في شعرنا العربي منذُ الثلث الثاني من القرن العشرين، واستمرت حتى هذا التاريخ؛ فرأينا شعراءنا المبدعين في عديد من بقاع الوطن العربي يستحضرون شخصيات كثيرة كانت في البداية إغريقية ورومانية وسومرية وفرعونية وسورية قديمة، من أبطال أساطير تلك الشعوب مثل «أوليس وبروميثيوس وأوديب وأرفيوس وسيزيف وإيزيس ورع وجلجامش وعشتار وإنانا وبعل وغيرها»، ثم أصبحت عربية (مسيحيّة وإسلامية)؛ ومن مصادر أسطورية أو دينية أو تاريخيّة أو أدبية أو صوفية أو فلكلورية: «يسوع (ع)، أليعازر، محمد (ص)، علي (ك)، الحسين، مريم، الحلاج، زرقاء اليمامة، الكاهن سطيح، المتنبي، كليب، مهيار، الحجّاج، عثمان،خالد، الرشيد، صقر قريش...» وتمكنوا من خلال توظيف كثير من هذه الشخصيات من أن يدينوا القمع والعسف والبطش بالناس بطرائق فنيّة أبعدتهم عن المباشرة، وبذل المشاعر مجاناً، مكنتهم من استخدام هذه الشخصيات تارةً رموزاً، وأخرى أقنعة، وثالثة مرايا وما إلى ذلك؛ فهربوا بذكاء من عصا الرقيب وارتقوا فنياً بأشعارهم. لقد لجأ شعراؤنا إلى حيلة فنية تمثلت في استعارة أصوات شخصيات تراثية متنوعة جعلوا منها أبواقاً يدفعون بوساطتها آراءهم من دون أن يتحمّلوا عواقب الأمر من بطش وتنكيل.

وقد صرّح كثيرون من الشعراء ببعض البواعث التي جعلتهم يستحضرون هذه الشخصيّة التراثيّة أو تلك؛ ها هو بدر شاكر السيّاب يسوّغ لجوءه إلى تلك الحيلة قائلاً: «كان الواقع السياسي هو أول ما دفعني لذلك، فحين أردت مقاومة الحكم السعيدي بالشعر اتخذت من الأساطير ـ التي ما كان لزبانية نور السعيد أن يفهموها ـ ستاراً لأغراضي تلك. كما استعملتها للغرض نفسه في عهد قاسم؛ ففي قصيدة (سربوس في بابل) هجوت قاسماً ونظامه أبشع هجاء، من دون أن يفطن زبانيته لذلك، كما هجوت ذلك النظام في قصيدتي الأخرى (مدينة السندباد).

وبالفعل يكتشف من قرأ (مدينة السندباد)1 أن السياب استطاع باستخدام مجموعة من الشخصيات التراثية التي تستر بها تصوير معاناة بغداد (مدينة السندباد) من بلاء وخراب ومظاهر جدب ودمار خلال فترة الحكم القاسمي. ففي المقطع الخامس من القصيدة المذكورة يستدعي السيّاب شخصية ألعازر؛ ليبيّن أن ما توهمه أهل العراق بعثاً لهم بعد الموت الذي عاشوه إبان الحكم الملكي، ليس إلا بعثاً كاذباً، ويأتي ذلك على لسان ألعازر نفسه متمنياً لو أنه ظلّ ميتاً ولم يبعث حياً:

«من أيقظ ألعازر من رقاده الطويل؟!
لكي يجوع أو يمس جمرة الصدى
ويحذر الردى
ويحسب الدقائق الثقال والسراع
ويمدح الرعاع
ويسفك الماء
من الذي أعادنا؟ أعاد ما نخاف؟
من الإله في ربوعنا
تعيش ناره على شموعنا؟
يعيش حقده على دموعنا..»

وتحتشد الشخصيّات التاريخية والتراثية في القصيدة «محمد (ص) ويسوع (ع) وأدونيس وعشتار»، فيفضح السيّاب عبرها كل ما ارتكبه العهد القاسمي من جرائم بحق العراق من دون أن يعرض نفسه مباشرة لبطش أجهزة القمع المتربصة بأصحاب الرأي الآخر!

ومن التجارب اللافتة في هذا المجال تجربةُ الشاعر العراقي عبد الوهاب البيّاتي، الذي وَجَدَ في استدعاءَ التُراثِ وتوظيفه ضالته المنشودة، وحاولَ من خلالِ ذلك إيجادَ أسلوبِهِ الشعري الجديد: «... هذا وغيرُهُ قادني إلى إيجاد الأسلوب الشعري الجديد الذي أعبّر به، لقد حاولتُ أن أوفّق بين ما يموت وما لا يموت، بين المتناهي واللامتناهي، بين الحاضر وتجاوز الحاضر، وتطلّبَ هذا مني مُعاناة طويلة في البحث عن الأقنعة الفنيّة. ولقد وجدت هذهِ الأقنعة في التاريخ والرمز والأسطورة، وكان اختيار بعض شخصيات التاريخ والأسطورة والمدن والأنهار وبعض كتب التراث للتعبير من خلال «قناعٍ» عن المحنة الاجتماعيّة والكونيّة من أصعب الأمور.... إلخ»2

ثُمّ يُحدد البياتي تلكَ الشخصيات التي وظّفها بصورةٍ أو بأخرى في قصائِدِهِ، وسنرى أنها تعودُ إلى مصادر تراثية مختلفة، وبعضها مُعاصِر ويعيش في زمن الشاعر:«إن شخصيّة الحلاج والمعري والخيّام وديك الجن وطرفة بن العبد وأبي فراس الحمداني والمتنبي والاسكندر المقدوني وجيفارا وبيكاسو وهمنجواي ومالك حدّاد وجواد سليم وألبير كامي وناظم حكمت وعبد الله كوران وعائشة وإرم ذات العِماد ... وغيرها، التي اخترتُها، حاولتُ أن أقدّم البطل النموذجي في عصرنا هذا، وفي كل العصور في (موقِفِهِ النهائي)، وأن أستبطن مشاعر هذهِ الشخصيات النموذجيّة في أعمق حالات وجودها، وأن أعبّر عن النهائي واللانهائي وعن المحنة الاجتماعيّة والكونيّة التي واجهها هؤلاء...»3

وبالفعل... فمن يقرأ قصيدتَهُ «موت المتنبي»4 مثلاً المكتوبة عام 1963، والتي تتخذ هذهِ الشخصيّة محوراً لها، يتلمّس كيف استطاع الشاعر أن يرصد الصراع الأبدي بين المبدعِ من جهة بكل ما يمثّله من طاقاتِ الخلقِ والإبداع، والسلطة الزمنيّة الغاشمة بكل ما لديها من وسائل بطشٍ وخداعٍ ومكر من جهةٍ أُخرى.

والقصيدة طويلة تقعُ في عشرة مقاطع متفاوتة الطول، يتذبذبُ موقفُ البياتي فيها من التعامُلِ مع المتنبي بين الحديث عن الشخصيّة والحديث إليها وصولاً إلى التحدث بصوتها متماهياً معها مُعبراً عن معاناتِها الشخصيّة (التي هي مُعاناته هو أيضاً) في الغربةِ والنفي والصدام مع السلطة. وينهي البياتي قصيدتهُ بمقطع يحمل عنوان «الشاعرُ بعد ألفِ سنة» ليؤكد من خلالِهِ أن المتنبي على وجه الخصوص – والشاعِرِ عامةً – لا يموت، حتى ولو ذابَ جسدهُ في التراب:

«حصانُهُ يصهَلُ في المساءْ ..
يوقظُ في ذاكرة السنينْ
اللهبَ الأسودَ والحُبَّ الذي يموت في ظلِ السيوفِ
عاصفاً حزينْ
عشرون جُرحاً
فتحتْ في صدرهِ فاها وصاحتْ
أشعلتْ في دمه النجومْ
وهو على أسوارِ بغدادَ وفي أسواقِها يحومْ5»

«المبدعُ إذاً يعيشُ حياتين! إحداهما في عصرِهِ وهي الأمَرُّ؛ بما تَحمِلُهُ من ألم وغربةٍ وما إلى ذلك، والأخرى في العصور اللاحقة، فيصبحُ رمزاً إنسانياً! وبالتالي فالظلمُ والقهرُ زائلان، والشاعِرُ خالدٌ بقوةِ روحهِ وفنّه» 6

ومن قصائد البياتي الكثيرة والمهّمة في هذا السياق قصيدةُ «عذاب الحلاج» التي يتقنّعُ فيها الشاعِرُ بصورة ِ الحسين بن منصور الحلاج إحساساً منهُ أن ملامح هذهِ الشخصيّة تنطبقُ على بعضِ ملامِحِهِ الخاصة، فكلاهما يستخدمُ السلاحَ نفسهُ – أعني الكلمة – وكلاهما يدافعُ عن الفقراء والكادحين والمستضعفين، ويُلاقي ما يلاقيه من بطشٍ وعسف:

«ما أوحشَ الليلَ إذا ما انطفأ المصباح
وأكلتْ خبزَ الجياع الكادحينَ زمرُ الذئابْ
وصائدو الذبابْ
وخرّبتْ حديقةَ الصباح
السحبُ السوداءُ والأمطارُ والرياحْ (.....)
يا مُسكِري بحبّهِ
محيّري بقربِهِ
يا مُغلِقَ الأبوابْ
الفقراءُ منحوني هذهِ الأسمالْ
وهذهِ الأقوالْ
فُمدَّ لي يديكَ عبرَ سنواتِ الموتِ والحصار (...)
ومزقِ الأسدافْ» 7

وستبدأ مُعاناةُ الحلاج الحقيقيّة حين يواجه السلطة المتكبّرة المتجبّرة في دفاعِهِ عن الناس الطيبين وعن إيمانِهِ العميق وهذا أيضاً يلتقي مع تجربة البياتي، ولذلك يقولُ الشاعر في مقطع«المحاكمة»:

«بحثتُ بكلمتين للسلطانْ
قلتُ لهُ جبانْ
قلتُ لكلبِ الصيدِ كلمتينْ
ونمتُ ليلتينْ
حلمتُ فيهما بأني لمْ أعدْ لفظينْ
توحّدتْ
تعانقتْ
وباركتْ – أنتَ أنا
تعاستي
ووحشتي
وضجَّ في خرائبِ المدينةِ
الفقراءُ إخوتي...
يبكونَ، فاستيقظتُ مذعوراً على وقعِ خُطا الزمانْ.
ولم أجدْ إلا شهود الزور والسلطانْ ...»8

ويحاولُ الشاعرُ في المقبوس السابق والمقاطع القادمة من القصيدة أن يوحّدَ بينَ جلاديهِ وجلادي الحلاّج، فكما أن قضاة الحلاّج أدانوه ظلماً وحكموا عليهِ بالموت، كذلك فعَلَ الذين حكموا على الشاعر بالنفي عن بلده وحرموهُ من إيصال كلماتهِ إلى جماهير الكادحين...

كما يوحّد بين آلامِهِ وآلام الحلاج، فلقد ظَلّ الحلاّجُ أياماً مصلوباً بعد أن قطعّوا أوصاله، وبعدَ ذلك أحرقوه وذرّوا رمادَهُ في دجلة ...» 9

ويختمُ الشاعِرُ – كما فعَلَ في قصيدةِ «موت المتنبي» – بالتأكيد على أنَ صلب الحلاّج / البياتي وحرقُهُ لم يقضِ عليهِ؛ بل جعله ذلك خالداً ومستمراً في نُسغِ الأشجارِ وترابِ البلاد:

«أوصال جسمي أصبحتْ سماذ
في غابة الرماذ
ستكبُرُ الغابَةُ يا معانقي
وعاشقي
ستكبرُ الأشجاز
سنلتقي بعدَ غدٍ في هيكلِ الأنواز
فالزيتُ في المصباحِ لن يجفَّ، والموعدُ لن يفوتْ
والجُرحُ لن يتبرأَ، والبَذرةُ لن تموت»10

وبالتالي المعركة بين قوى الإبداعِ والخلقِ والنور(متمثلةً بالشاعرِ)وقوى القمعِ والبطشِ والدمار(متمثّلةً بالسلطةِ الغاشمة وزبانيتها) ستنتهي – على المدى الطويل بانتصار الأولى وهزيمة الثانية شر هزيمة!

ومن الشعراء الذين أكثروا من استحضار الشخصيات التراثية المختلفة، وكان أحد أهم البواعث لديهم هو الباعث السياسي, الشاعر المصري أمل دنقل، وتكفي نظرة سريعة على عناوين عديد من قصائده للدلالة على ذلك: «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة»، و«الكلمات الأخيرة لسبارتاكوس»، و«مقتل كليب- الوصايا العشر» و«أقوال اليمامة» و«من مذكرات المتنبي في مصر» و«حديث خاص مع أبي موسى الأشعري» و«من أوراق أبي نواس». في القصيدة الأولى استخدم الشاعر شخصيتين تراثيتين هما: زرقاء اليمامة (فتاة جديس) التي هاجم حسان بن تبع ملك حمير قومها، فرأت جيشهُ على مسيرة ثلاثة أيام، وأنذرت قومها فلم يصدقوها. والشخصية الثانية عنترة العبسي (الذي عاش عبداً عند أبيه حتى هوجمت قبيلته، فكان له الدور الأكبر في إنقاذها، ونال بذلك الحرية). القصيدة مكتوبةٌ بعد هزيمة 1967، وقد تمكن أمل دنقل من خلال شخصية زرقاء اليمامة أن يصور أولئك الذين أحسوا بالخطر قبل وقوعه، فمضوا يعملون على لفتِ أنظار الناس والسلطة إلى الخطر القادم، فلم يعبأ بهم أحد؛ بل كان جزاؤهم البطش والتنكيل بهم:

«أيتها العرافة المقدّسة
ماذا تفيد الكلمات البائسة؟
قلت لهم ما قلت عن قوافل الغباز..
فاتهموا عينيك بالبواز!
قلت لهم ما قلت عن مسيرة الأشجاز...
فاستضحكوا من وهمك الثرثار!
وحين فوجئوا بحد السيف: قايضوا بنا..
والتمسوا النجاة والفراز!
ونحن جرحى القلب،
جرحى الروح والفم.
لم يبق إلا الموت.. والحطام.. والدماز
وصبية مشردون يعبرون آخر الأنهاز
ونسوة يسقن في سلاسل الأسر،
وفي ثياب العاز...»

في حين وظف شخصية عنترة العبسي للدلالة على الإنسان العربي الفقير الذي عاش ذليلاً ممتهناً، بينما تمتع السادةُ بخيرات الوطن، حتى إذا أحدق الخطر به فر أولئك السادة، ووجد المواطن الفقير نفسه وحيداً في الميدان، وقد تقمص الشاعر هذه الشخصيّة، وتحدّث بلسانها، فالتصقت تماماً بشخصيّة الجندي الجريح العائد من جبهة القتال مهزوماً، تلك التي كان يروي بصوتها منذ بداية القصيدة:

«.....ظللت في عبيد عبس أحرس القطعانْ
أجتز صوفها
أرد نوقها
أنام في حظائر النسيان
طعامي: الكسرة والماء وبعض التمرات اليابسةْ
وها أنا في ساعة الطعانْ
ساعة أن تخاذل الكماة والرماة والفرسانْ
دعيت للميدان !»3

ومن قصائده المتميزة في هذا المجال قصيدة «مذكرات المتنبي في مصر» التي كتبها أوائل عام 1968، ليدين من خلال كافور الأنظمة العربية المهزومة

البقية.....ص23

الفرويديّة: ألق العلم وسحر الخرافة

بدر الدين عامود

إذا أمكن للمثقف أن يختار المشاركة في الحوارات والمناظرات التي تتناول موضوعات مختلفة تنتمي إلى ميادين معرفية متجاورة فمن المفيد أن يستند في اختياره إلى رصيد معرفي كافٍ مقرونٍ باحترام الآخر ورغبةٍ في التكامل معه.

إن المثقف المؤمن بالنهوض الثقافيّ هو من يعمل على توفير مقتضيات المشاركة الفاعلة فيه، ويعدُّ نفسه لهذه المهمة النبيلة ثقافيّاً ووجدانيّاً.

يدفعنا إلى هذا القول ما نقف عليه لدى قراءة بعض الكتب والمقالات التي تحتويها بعض الدوريّات العربيّة من ثغراتٍ ونقائص ليس في آليات الكتابة العلميّة وأسلوبها فحسب، بل في مضمون العمل بوجهٍ عام؛ ممّا يفقده صفة العلميّة ويبعده عن الموضوعيّة. والمقصود من تلك الأعمال ما يعود أغلبها إلى أدبيات العلوم الإنسانيّة والنفسيّة بخاصة، والاعتماد على آراء رواد تلك العلوم ومشاهيرها من دون التّعرف إلى خلفيتها وفحص مدلولاتها والتدقيق في مراميها، ممّا يخرج الاقتباس عن سياقه، ويجرده من وظيفته.

وما يثير الدهشة هو وقوف بعض الكتاب العرب موقف التقديس من بعض النظريات، ودفاعه عن مفاهيم وأفكار بحماسةٍ شديدةٍ لا تخلو أحياناً من التّعصب والتطرف، وهجومه العنيف على من يحاول التشكيك في علميتها أو صحة بعضها من دون أن يقدّم ما له طعم أو رائحة العلميّة من أدلّة وبراهين. والأمثلة على هذا – للآسف- ليست قليلة. وسوف أقصر حديثي على واحدٍ منها بوصفه الأبرز.

قرأت منذ مدّة في عدد خاص من مجلة "المعرفة" يحمل الرقم 570 مقالاً بعنوان "دفاعاً عن سيغموند فرويد" للناقد الأستاذ عبد محمد بركو. وقد حمل هذا المقال إشاراتٍ إلى شخصيات قامت بنشاطاتٍ علميّة في فتراتٍ زمنيّة مختلفة. وما يلفت الانتباه في الربط بين الوقائع والأسماء والأزمنة خلطٌ رجحت أن يكون سببه خطأ تقنيّ.

ولكن قراءتي للمقال نفسه في جريدة "الأسبوع الأدبيّ" وبالتحديد في عددها ذي الرقم 1290 بدّد هذا الاعتقاد، وتبيّن أن ما جاء في مقدمة المقال من أن فرويد نقل علم النفس "... من أوهام العلاج بالتنويم المغناطيسيّ الذي ابتكره مسمر وحافظ عليه شاركو وبرنهايم وسواهم من علماء النفس في القرنين الثامن عشر ومنتصف التاسع عشر". وأنّ ما ورد تحت عنوان فرعيّ "ميشال أونفري: فلسفة الحقد على العظماء" في الصفحة 340 من المجلة من أنّ "... هذا العبقري الهمام (المقصود أونفري – ب.ع) ليس من مجايلي فرويد الذي أبدع نظريته في التحليل النفسيّ وطرحها عام 1869" يعكس جهل الكاتب بتاريخ علم النفس؛ بل بتاريخ التحليل النفسيّ ومؤسسه وبالمقدمات التي ساعدت على نشأته (2، 2011، 340).

ولعلّي أتخذ من هذين المقتطفين مدخلاً للحديث عن التحليل النفسيّ ومؤسسه وعلاقاته بالآخرين، وأثره في علم النفس بخاصة والعلوم الأخرى والفن والأدب بعامة، ومواقف أتباعه ونقاده القدامى والمعاصرين.

سيغموند فرويد من مواليد مدينة فرايبورغ في مقاطعة مورافيا عام 1856. وبعد ثلاثة أعوام من ولادته سافرت الأسرة إلى فيينا لتستقر فيها. ويحكي فرويد في مذكراته عن معاناته بسبب انتمائه إلى الأقليّة اليهوديّة. ويستعيد من خلالها صورة جرس كنيسة فرايبورغ الذي كان صوته مصدر خوفه الشديد. كما كانت حكايات والديه عن ازدراء المسيحيين لليهود مبعث قلقه وشعوره بالحقد ورغبته في الانتقام. وذهبت به تلك الانفعالات إلى حد تشبيه أبيه بهاملغار وتقمصه شخصية هانيبعل الساميّ التي أصبحت فيما بعد – حسب اعترافاته – موضوع هواماته وسبب إحساسه باختلافه عن زملائه الطلبة.

وبالانتقال من دائرة الأسرة إلى دائرة المجتمع بمكوناته الثقافيّة التي كانت المعين الذي نهل منه فرويد، وكان أثره واضحاً في ميوله واتجاهاته. فالقرن التاسع عشر – كما هو معروف – هو قرن النهضة المعرفيّة التي أسهم فيها فلاسفة كبار أمثال ويلهلم هيغل وآرثر شوبنهاور وأوغست كونت وفريدريك نيتشه وإدوارد فون هارتمان، وعلماء طبيعة كشارلز داروين وغريغور ماندیل، وفيزيولوجيون من مثل هيرمان فون هيلم هولتز وآرنست فيبر وغوستاف فخنر وغيرهم ممّن أثروا تصوراته عن حياة الإنسان وأصله وبنيته العضويّة والنفسيّة.

وثمّة علماء آخرون كان لأفكارهم فضلٌ كبيرٌ وأثرٌ مباشرٌ في توجهه النظريّ والعمليّ. ويحتلُّ آرنست بروك المكان الأول في قائمة هؤلاء العلماء. وبروك هو أحد أبرز أساتذة كلية الطب التي درس فيها فرويد بين عامي 1881-1873. وقد عُرِف بنظرته إلى الكائن الحيّ بوصفه نظاماً ديناميّاً يجب أن يُدرس وفق القوانين التي تخضع لها العمليات الكيمائيّة والحيويّة.

أُعجب فرويد بأستاذه وبنظريته، وعمل على تطبيقها في دراسة النفس البشريّة. وأدّى به البحث في نهاية المطاف إلى تأسيس علم نفس الأعماق أو علم النفس الديناميّ الذي يتناول النفس كطاقةٍ من نوعٍ خاص تتحول من شكلٍ إلى آخر.

وبعد التخرج من كلية الطب عمل فرويد في مخبر بروك ثمّ في قسم الجراحة في مشفى فيينا ليتحول منه بعد شهرين إلى العمل في قسم الأمراض العقليّة الذي كان يترأسه ت. مينيرت الاختصاصيّ في تشريح الدماغ. وربما تأثر فرويد بفكرة هذا الطبيب حول ما دعاه "الأنا" كوعي جسمي يختلف عن الوعي الذي يحمل تصوراتنا عن العالم الخارجيّ لدى صياغة نظريته حول اللاوعي.

وبقي جهد فرويد منصبّاً نحو مشكلات التشريح المقارن وتحديد وظائف الدماغ والاضطرابات الحسّيّة والحركيّة كالحبسة والعَمَه. وقد حقق نجاحاً ملحوظاً في دراسة تلك الموضوعات.

ويُعدُّ جان مارتان شاركو واحداً من الذين زودوا فرويد بمعارف جديدة حول عضويّة الإنسان ونفسه وآليات نشاط كل من الجانبين. فقد وجد فرويد نفسه في مشفى السالبتريير الباريزي يتتلمذ على يد أحد مؤسسي علم الأعصاب المعاصر، ويتعرف بصورة مباشرة إلى طريقته في علاج المرضى العصابيين والمصابين منهم بالهستيريا بوجه خاص. وكان لشخصيّة الأستاذ من قدرة التأثير والجاذبيّة ما ترك في نفس التلميذ حالةً من الانبهار والذهول. وقد وصف فرويد في رسالة مؤرخة في 1885/11/24م هذه الحالة بقوله:"إن شاركو من أعظم الأطباء. وهو يقضي وبكلّ بساطة على كلّ أهدافي وآرائي. إنني أخرج من محاضراته كما لو كنت خارجاً من كنيسة نوتردام مع فكرةٍ جديدةٍ تماماً عن الكمال... هل ستعطي البذرة ثمرة؟ لست أدري!! وكلّ ما أعرفه هو أنّه ما من إنسان أثّر فيَّ بهذه الطريقة" (4، 2001، 252).

وبعد أن أمضى فرويد عاماً دراسيّاً ((1886-1885في باريز رجع إلى فيينا، وحاول استخدام طريقة التنويم الإيحائيّ في علاج مرضى الهستيريا. لكنه لم يحقق النجاح المأمول. وبدا له أنّ ثمّة مشكلةً في تطبيق هذه الطريقة ممّا حدا به إلى السفر إلى مدينة نانسي الفرنسيّة عام 1889 لطلب المشورة من ذوي الخبرة.

والتقى هناك بكل من برنهايم و ليبو، واطلع على عملهما، ووقف على حقيقة أن نصيب التنويم الإيحائي من النجاح هو أكبر لدى استخدامه لمعالجة المرضى القادمين من البيئات الفقيرة.

وبعد خيبة الأمل التي مُني بها فرويد بسبب ما لاقاه من عنتٍ في تطبيق طريقة التنويم الإيحائي وجد في تعرفه على الطبيب النمساوي جوزيف بروير واطلاعه على طريقته في علاج مرضاه ما يعوضه عمّا فقده.

ولقد كانت تقنيات بروير في العلاج البوابة التي دخل منها فرويد إلى عُمق النفس البشريّة، وتمكن من اكتشاف ما تحتويه من مشاعر وانفعالات مكبوته، وإخراجها إلى دائرة الوعي بفضل ما تسمح به تلك التقنيات للمريض من تداعيات تسهل عودته إلى أحداث ماضيه البعيد.

عمل الرجلان، بروير وفرويد، معاً حتّى العام 1894؛ حيث اختلفا حول تفسير اضطراب علاقة المريض بالطبيب بعد فترةٍ من العلاج. فقد عزا فرويد تعلق المريضة بالطبيب إلى السبب الجنسيّ الذي كان بالأصل وراء إصابتها بالمرض. وفسر موقفها هذا بأنّه عملية تحويل لموضوع الحبّ من أحد المحارم إلى الطبيب. وهو ما يؤلف، في اعتقاده، لحظةً مفيدة في العلاج. بينما عارض بروير هذا التفسير بشدّة، وأكدّ على عدم الاستهانة بهذه الحالة مهما تكن الذريعة أو المسوغ. وكان ذلك إيذاناً بنهاية سنوات التعاون والصداقة.

لم تشفع لبروير معاملته الأبويّة لفرويد، ولم يحل تواضعه وكرمه معه من دون الهجوم الذي شنّه فرويد عليه. وهذا ما أورده آرنست جونز في مؤلفه "حياة سيغموند فرويد وأعماله" وذكره آريك فروم في كتابه "فرويد". فقد كتب فرويد إلى صديقه فليس في 3/29 /1897 يقول: "إن مجرد رؤيته (بروير) يجعلني ميالاً إلى الهجرة". ويعلّق جونز قائلاً: "هذه كلمات قويّة، وهناك كلمات أقوى لا حاجة إلى إيرادها" (6، 1972، 57).

ويفسر فروم موقف فرويد تجاه بروير بما يرى أنّه نزعة الاعتماد على الآخرين التي كانت تميّز علاقة فرويد بغيره في جميع مراحل حياته. ويضيف إليها صفة الكبرياء والكره الشديد لأن يكون موضع رعاية. وتتجسد الكبرياء والكره عنده في لجوئه إلى "فصم أواصر الصداقة عندما يفشل الصديق في تحقيق دور الأم بصورة كاملة. وهكذا نجد أن أصدقاءه العظام يسيرون على الوتيرة نفسها: صداقة متينة لعدّة سنوات، ثمّ قطيعة كاملة عادةً ما تصل إلى حدّ الكراهية (6، 1972، 55).

وتلك الوتيرة عرفتها أيضاً علاقة فرويد بمساعده كارل يونغ التي تعود بدايتها إلى يوم الأحد الأخير من شباط (فبراير) 1907 حينما قام يونغ برفقة طبيب الأمراض العقليّة يوجين بلولر بزيارة فرويد في منزله. وقد تركت هذه الزيارة في نفس المضيف انطباعاً إيجابياً وعززت ثقته في المستقبل بعد أن لمس لدى ضيفيه رغبةً في التعاون والعمل المشترك.

وكان فرويد قد تمّكن قبل هذا اللقاء من استقطاب عدد من الأطباء اليهود (وشتيكل، أوتو رانك، كارل ابراهام، ساندور فرنتزي، آرنست جونز، م. ايتنهاين، ه. ساكس، ل. بينسفانغر، آلفرد آدلر). وكان هؤلاء يجتمعون برئاسة فرويد في منزله كل أربعاء ولذا أُطلق عليهم "جماعة الأربعاء النفسيّة".

قرر فرويد بعد لقائه بيونغ حل هذه الجماعة والدعوة إلى عقد مؤتمرٍ للتحليل النفسيّ. وفي نيسان 1908 عُقد هذا المؤتمر. ونشب في نهايته خلافٌ بين ابراهام ويونغ؛ الأمر الذي دفع فرويد إلى التدخل لإقناع ابراهام بضرورة وجود يونغ في قيادة حركة التحليل النفسيّ، واستدرار مشاعره الدينية وحثّه على التضحيّة من أجل انتشار أفكارهم ورفع شأن عقيدتهم اليهوديّة. وهذا ما نقرأه في إحدى رسائله التي وجهها إليه حيث يقول: "تذكر أن يونغ، وهو مسيحيٌّ وابن قس، قد تغلّب على مقاومات كبيرة قبل أن يجد طريقه إليّ... وعلينا نحن اليهود، إذا أردنا التعاون مع الآخرين، أن نبدي بعض المازوكيّة، وأن نستعدّ لتحمل بعض الظلم... إذ لا غنى لنا عن أصدقائنا الآريين. من دونهم يقع التحليل النفسيّ ضحية المعاداة للساميّة" (3، بلا تاريخ، 78).

والتساؤل الذي يطرحه هذا الموقف يتعلق بما يبقيه من شكٍ في نوايا فرويد ودوافعه لدى القارئ المطلع والمنصف. ولعل تلك الدوافع ظلت تحرك نشاطه العلميّ وعلاقاته بمساعديه وتلاميذه حتى وفاته. فقط كانت وراء حماسة فرويد ومساندته للاقتراح الذي تقدّم به فرنتزي؛ والذي يتضمن تشكيل مجلس سريّ بعد انشقاق آدلر وشتيكل؛ وظهور بوادر التوتر في علاقة فرويد ويونغ. وفي الاجتماع الأول لهذا المجلس عام 1912 الذي ضم إلى جانب فرويد كلاً من جونز وفرنتزي وآبراهام ورانك وساكس، قدم المؤسس لكلٍّ من الحاضرين فصاً إغريقياً من الأحجار الكريمة يوضع على الخاتم الذهبيّ. وبعد سنوات قدم فصاً آخر لايتينهاين.

ويعلّق فروم على هذا الحدث بوصفه حدثاً غريباً فيقول: "إن التحليل النفسيّ هو علاجٌ للعصاب، وهو في الوقت نفسه نظرية سيكولوجيّة، نظرية عامة في الطبيعة الإنسانيّة، وخاصةً وجود اللاشعور وتجلياته في الأحلام والأعراض المرضيّة وفي الشخصية وفي كلّ الإنتاجات الرمزيّة. فهل هناك حالة أخرى لعلاج أو نظرية علمية تحول نفسها إلى حركةٍ توجهها أساساً لجنةٌ سريّة مع تطهير لأعضائها المنشقين، ومع وجود تنظيمات محليّة داخل التنظيم الأكبر العالميّ؟ لم يحدث قط أن كان هناك علاجٌ في مجال الطب قد تحول إلى مثل هذه الحركة..." (6، 1972، 114).

لقد رغب فرويد في ضم يونغ إلى جماعته، بل في توريثه زعامة الحركة؛ يقول جونز: "لم يكن فرويد من جانبه شاكراً للعون الذي جاء إليه من بعيد فحسب، بل لقد انجذب أيضاً بشخصية يونغ، وسرعان ما قرر أن يكون يونغ خليفته، وأحياناً ما يسميه (ابنه ووريثه)... لقد كان مقدراً على يونغ أن يصبح يسوع الذي سيكتشف أرض الطب العقليّ التي لم تسمح لفرويد – على غرار موسى – سوى أن يراها من بعيد" (6، 1972، 69).

وسرعان ما بدأ موقف فرويد من يونغ يتغير في الاتجاه السلبيّ، بعد أن أبدى الأخير ملاحظته حول الرغبة في المحرمات، ودعا إلى فهمها كرمز إلى شيء بدل أن تؤخذ بحرفيتها. وقد شنَّ فرويد هجوماً عنيفاً عليه، وحذره من انتقاده له مرة أخرى. وبعد ذلك أضحت علاقة الرجلين تتراوح بين الفتور والبرودة إلى أن انتهت عام 1914 بالقطيعة التامة. وحلّت مشاعر الحقد لدى فرويد محل المحبة والتقدير تجاه يونغ. ولا أدل على ذلك مما قاله في إحدى رسائله إلى جونز في 1919/2/18: "إن عزمك على تطهير الجمعية اللندنيّة من الأعضاء المتأثرين بيونغ أمر رائع". (6، 1972، 91).

ولا يستثنى اللاوعي الذي يُعد حجر الزاوية في التحليل النفسيّ ممّا نحن بصدد الحديث عنه من اعتماد فرويد في صياغة نظريته على أسلافه من المفكرين. فالفضل في توجيه الاهتمام نحو هذا المفهوم يعود إلى الفيلسوف غوتفريد ويلهلم ليبنتز، عندما تحدّث عن وجود مستويين للعقل: المستوى الواعي والمستوى اللاواعي. وقد أصبح مفهوم اللاوعي فيما بعد مادة جدل الفلاسفة وموضوع مناظرتهم. فها هو ذا ويلهلم هيغل يتصور غوراً لا حدود له في النفس البشريّة تستقر فيه تصورات لا تحصى خارج وعي الإنسان. ويرى أن هذه التصورات قد تعرف في حالاتٍ معينة سبيلها إلى الوعي، لترفد خبرات الفرد المباشرة.

ونلمس تأثير تصورات فريدريك هربارت عن وجود أفكار منسجمة وأخرى متنافرة في نظرة فرويد إلى اللاوعي، وما يجري في ساحته من عمليات ديناميّة لاواعيّة. فقد تحدّث هربارت عن الأفكار المنسجمة والانفعالات الايجابيّة التي تحدثها وعن الأفكار المتنافرة والانفعالات السلبيّة التي تنجم عنها، والصراع الذي يدور بين هذه الأفكار وانتصار الواضحة منها على الغامضة، وطردها إلى خارج الوعي. ورأى أن هذه الأخيرة تعود مرة أخرى إلى حلبة الصراع بعد أن تتحالف مع غيرها من الأفكار وتصبح قادرةً على المواجهة من جديد.

وكان أفلاطون قد أشار إلى وجود منطقة عميقة في النفس يتمّ فيها نشاط غير عقلانيّ، يهدف إلى إشباع الغرائز الطبيعيّة عند الفرد بما فيها الجنسية. وقد يجد الإنسان نفسه مدفوعاً بغريزته الجنسيّة دونما وعي إلى حد محاولة معاشرة أمه بلا تردد أو تلكؤ (1، 1971، ج1، 391).

كما أسهم شوبنهاور في اتساع الأرضيّة التي انطلق منها فرويد وأقام عليها نظريته في اللاوعي. فقد وجد هذا الفيلسوف أن اللاوعي هو "الحالة البدائيّة والطبيعيّة للأشياء كلها. وبذلك يكون اللاوعي هو التربة التي منها تنمو لدى بعض أنواع الكائنات الحيّة زهرة الوعي الساميّة" (5، 1981، 27-26).

وذهب نيتشه إلى أن النزوع إلى السلطة هو قوة لا واعيّة تحرك الناس. وشدد هارتمان على أهميّة اللاوعي في النشاط الحيويّ للفرد ودوره في الإبداع الإنساني. ودعا إلى تفسير العلاقات المتبادلة بين

الوعي واللاوعي في عالمنا الدّاخليّ على الرغم من أننا لا نعيها (5، 1981، 27).

إننا نؤكد ما قاله كاتب المقال من بديهيّة تأسيس فرويد لمدرسة في التحليل النفسيّ. بيد أن القول بأنّه قام بذلك " من دون أن يستند – كما يزعم الأستاذ بركو – إلى أيّة نظرية سابقة، هو قول لا يستند إلى أساس موضوعي في التأريخ للفكر والعلم.

إن من حقّ الأستاذ بركو أن يصف ما جاء به فرويد بأنّه ثورة علميّة كبرى. وينبغي أن يُفهم رأيه هذا كلحظةٍ من زمن حواره مع النظرية الفرويديّة. وبالمقابل فإنّ من حق القارئ أيضاً أن يتعرف إلى الزاوية التي ينظر منها الكاتب إلى هذه النظرية، ومسوغات ما توصل إليه من أنّها "نسفت معظم الاتجاهات والنظريات السابقة في علم النفس الذي كان يتخبط في العماء وتختلط فيه الأوهام بالفلسفة"(340،2،2011).

ولعلّ غموض الصورة التي يحملها الأستاذ بركو عن نشاط فرويد منذ تحوله إلى علم النفس وانتشار تعاليمه وعلاقته بالآخرين، ودور هذه العلاقة في تطور نظريته هو ما يمكن أن نفسر به المغالطات والأخطاء التي لا يصعب على القارئ التعرف إليها وإدراك أسبابها كتقديم آدلر ويونغ وهورني وفروم وجونز وآبراهام كفرويديين جدد.

ولإزالة هذا الغموض أراني مضطراً إلى عرض أفكار وأحداث كثيرة ذكرتها في مناسبات سابقة، وتناولتها الأدبيات المتخصصة بالتحليل والتقويم على امتداد أكثر من نصف قرن. فطالب علم النفس يعلم جيداً أن كارن هورني وأريك فروم يمثلان خطاً من خطوط الفرويديّة الجديدة، وأن أدلر ويونغ انشقا عن الحركة الأم ليؤسس الأول علم النفس الفرديّ والثاني علم النفس التحليليّ. أمّا جونز وآبراهام فقد بقيا ضمن الدائرة التي يتزعمها فرويد.

والخطوة التالية في إجلاء الصورة تتمثل في لفت الانتباه إلى تغيير آراء فرويد نفسه من حينٍ إلى آخر. فالنفس – حسب الصورة التي رسمها في بدايات القرن العشرين – تقوم على الوعي وما قبل الوعي واللاوعي والدافع الجنسيّ. بينما يراها بعد الحرب العالميّة الأولى تتكون من الهو والأنا والأنا الأعلى وغريزة الجنس وغريزة الموت.

وللتدليل على وجود غريزة الموت يحيلنا فرويد إلى حكاية نشأة الحياة على الأرض ونزوع الأحياء إلى الفناء. ويزعم أن هذه النزعة ورثتها أحياء الأرض عن كائنات عضويّة عاشت في حقبة قديمة، ثمّ ما لبثت أن عادت إلى حالتها اللاعضويّة. وأنّها هي التي تدفع الكائن الحيّ إلى العودة إلى الحالة التي كان عليها قبل ولادته (7، 1970، 68).

وفي هذه الفرضيّة نوع من الخلط بين ما يراه علماء الطبيعة من قدرة الخلية الحيّة على مواجهة الشروط الخارجيّة والصمود والبقاء ومسار هذه القدرة الذي يبدأ بتكونها لتبلغ في عمرٍ معيّنٍ ذروتها يعقبها انحدارٌ ينتهي بزوالها وبين ما يكون عليه فعلها في الحياة النفسيّة للفرد. وما يدفع باتجاه هذا التقويم هو قلة ما كتبه فرويد عن هذه الغريزة وطبيعتها وعلاقتها بالغريزة الجنسيّة. وهذا ما يطرح جملة من الأسئلة تتعلق بتصوره حول حقيقتها ومستوى قناعته بدورها.

ولعلّ التساؤلات التي تثيرها إضافة غريزة الموت إلى البنية النفسيّة للإنسان هي بمثابة الاحتجاج على ما يعدُّه من يطرحها مسوغاً لأعمال القتل والعدوان التي يقوم بها بعض الناس، بل وللجرائم التي يرتكبها بعض الزعماء السياسيين والقادة العسكريين ضدّ الإنسانيّة. والحقّ أن التأكيد على وجود هذه الغريزة يعني الحكم على أيّ محاولة لتجنيب الناس تداعيات الاقتتال وأهوال الحرب بالإخفاق ما دامت تحركهم قوةٌ عمياء لا سبيل إلى الوقوف في وجهها والتحكم بها.

إنّ من حق فرويد علينا أن نعترف بدوره في تسليط الضوء على اللاوعي ليصبح جزءاً من النفس، وعلى أهميته في الحياة النفسيّة على الصعيدين النظري والعمليّ. لكننا في الوقت ذاته نرى أن فرويد بالغ في تقدير حجم هذا الجزء، وفي حديثه عن دوره في النشاط النفسيّ للفرد، وفي مختلف أوجه نشاطات المجتمعات البشريّة.

وعلى الرغم من أن فرويد أشار إلى وجود حاجات ودوافع فطرية أخرى كالجوع والعطش، إلّا أنّه لم يرَ ما يلعبه قيام الفرد بتأمين موضوعات تلبيتها من دورٍ في تطوره النفسيّ. وقصر حديثه في جميع مراحلَ نشاطه العلميّ على الدافع الجنسيّ، ووجد أن إشباعه هو الهدف النهائيّ لأفعال الإنسان ونشوء المظاهر النفسيّة عنده منذ الولادة.

وبإمكاننا التسليم بأهمية الدافع الجنسيّ عند الإنسان على ضوء ما وضعته البشريّة عبر تطورها من شروط وضوابط لتلبيتها. ولكن هذه الأهمية يجب ألا تنسي الباحث ما للحاجات الطبيعية الأخرى من تأثيرٍ في الحياة النفسيّة للبشر، لما تستدعيه تلبيتها منْ مراعاةٍ للقواعد واستعمالٍ للطرائق والأدوات واكتسابٍ للمعارف والمهارات التيِ وضعها المجتمع.

وإلى جانب الحاجات الطبيعيّة ثمّة حاجات ثقافيّة – روحيّة تنتقل من جيل إلى جيل عن طرق التنشئة الاجتماعيّة. وتتمثل هذه الحاجات المكتسبة في الميول المعرفيّة والاتجاهات الفكريّة والاجتماعيّة والعقائد الدينيّة والرغبات الخاصة والعامة. وقد يفوق أثرها في تطور النفس أثر الحاجات الطبيعيّة في كثير من الحالات والمواقف الحياتيّة.

وهذه الحاجات، بموادها وموضوعاتها، تظهر وتتطور مع تطور النشاط الاجتماعيّ المشترك والمنتج. وهي تتكون وتتبلور لدى الفرد في مجرى تفاعله الاجتماعيّ، وتتحول إلى دافع يحثّه للقيام بالأفعال التي تؤدي إلى إشباعها. وبإشباع أفراد المجتمع حاجاتهم الثقافيّة يطورون ثقافة مجتمعهم. ويعني ذلك أن الثقافة هي نتاج النشاط الفرديّ والجماعيّ الذي يقوم به الناس لإشباع حاجاتهم، وليست نتيجة آلية تصعيد الطاقة الجنسيّة وتحويلها إلى نشاط يقبله المجتمع ويشجع عليه.

وتتمحور خلافات فرويد مع مساعديه وأتباعه بصورةٍ أساسيّة حول مبالغاته في دور الحاجة الجنسيّة ونظرته إليها كدافع أساسيّ يقرر نمط الشخصيّة ومصيرها منذ السنوات الأولى من حياة الفرد.

وليس في تلك الخلافات ما يدعو للاستغراب. فالتباين في الآراء والنقد ونقدُ النقد حالة طبيعيّة، بل وصحيّة إذا ما أُحسن توجيه هذه الفعاليّة الفكريّة. وهي لا تصير كذلك إلّا إذا لاقى الرأي الآخر – أيّاً كان – لديّ ما يجسد الرغبة في التكامل معه والاغتناء به من اهتمام وإصغاء ومتابعة. وعندئذٍ فقط يزهر الحوار ويثمر تعاوناً مجدياً وعملاً جماعيّاً تكون الحقيقة هدفاً لكل طرفٍ فيه. ويقيناً أنه ما من أحد من موقعه ومكانه يستطيع الوصول إليها بمفرده. لذا يجدر بنا أن نعلم، بل ونسلم بأنَّ أيّاً منا، مهما كانت قدراته ومؤهلاته، لا يملك إلّا جزءاً من تلك الحقيقة التي تبدو الآن وهنا كاملة ومطلقة. ويزيد هذا الجزء أو ينقص تبعاً لما يمتلكه هذا الطرف أو ذاك من إمكانيات.

إنّ الدفاع عن الأفكار والنظريات يقتضي ممن يتولاه أن يتحلى، إلى جانب التواضع والاتزان العاطفيّ واحترام الآخر، بسعة الاطلاع والقدرة على عرض آرائه بلغةٍ واضحة ومعبرة وأسلوبٍ علميّ يعتمد على الأدلة ويتجنب المبالغة والتهويل. أمّا الاكتفاء بعرض الأمجاد التي حققتها والتغني بشخصيات أصحابها وبما تتمتع به من مواهب من غير تقديم البراهين العلميّة التي تثبت صحتها وتفند آراء معارضيها، فإنّه يجرد العمل من أي إمكانية على الإقناع ويجنح بالحوار العلميّ فيحوله إلى مهاترة أو مساجلةٍ عقيمة.

لقد كان الأجدر بالأستاذ بركو أن يعرض الملاحظات والانتقادات التي وجهها ميشيل أونفري إلى فرويد ويتولى الرّدّ عليها بصورة منطقيّة. لكنه لم يفعل واكتفى بتوجيه الشتائم إلى أونفري واتهامه بالنقص والضعف والخواء والحسد والخلل النفسيّ والأخلاقيّ. وبالغ في هجومه عليه إلى درجة الاستخفاف بشخصيته وبقدرته على الكتابة. والمضحك المحزن أن حنقه عليه قاده إلى مصادرة حقّه في انتقاده فرويد لأنّه – حسب قوله- ليس من مجايليه "وهذا بحدّ ذاته تعسفٌ ضدَّ الحقيقة والموضوعيّة"، ولأنّ نقد "... رجلٌ في ذمة الله. .. ضربٌ من ضروب الضعف وعقد النقص أيضاً" (2، 2011، 341-340).

ويتوهم العزيز بركو أنّه بذلك يسهم في الحوار والجدل الذي أثاره كتاب أونفري "أفول معبود. الخرافة الفرويديّة le crepuscle dune idole. l affabulation freudienne" الذي صدر في باريز 2010. وينطلق السيد اونفري في عمله هذا من فرضية أنَّ هناك تبايناً يصل إلى مستوى التناقض بين تصرفات فرويد وأفعاله في حياته اليوميّة من ناحية، وبين ما كتبه وبشر به عبر نظريته من ناحية ثانية. ولإثبات صحة هذه الفرضيّة رجع المؤلف إلى المراسلات والكتابات المتعلّقة بالتحليل النفسيّ وبمؤسسه. وأظهرت قراءته لحوالي ستة آلاف صفحة أن التحليل النفسيّ ليس علماً، بل إنّه علمٌ خاطئ. وما النظرية التي صاغها فرويد إلّا عملاً نفسيّاً أدبيّاً يقوم على سيرته الذاتيّة. فقد حول حالته الخاصة إلى حالة عامة. وهذه النتيجة هي ذاتها التي توصل إليها فليس، صديق فرويد، حين قال بأنّ فرويد يقرأ أفكاره في مرضاه. فرغبته في مضاجعة أمه وحقده على أبيه، الذي كان يتظاهر بمحبته واحترامه، واتهامه إياه بعد 16 شهراً من وفاته بأنّه كان يمارس الجنس مع إخوته وأخواته، ثمّ إعلانه عن التوقف عن ممارسة الجنس مع زوجته بحجة محاولته تصعيد رغبته الجنسيّة وتحويلها إلى مجال البحث العلميّ للتستر على علاقته الجنسيّة مع أخت زوجته، وكذلك حلمه بمضاجعة ابنته إنْ هي إلّا أمثلة على تلك الإسقاطات التي وجدت موقعها في نظريته عن عقدة أوديب والصدمات النفسيّة التي يعاني منها المرضى بسبب الاعتداءات الجنسيّة التي تعرضوا لها من جانب المحارم.

وبعودة أونفري إلى ما كتبه فرويد إلى أصدقائه ومساعديه، وجد أنّه ليس سوى مغامر conquistador يقول الشيء ونقيضه. وهو يفعل ما لا يقول ويقول ما لا يفعل. وهذا كلام فرويد نفسه. فقد بعث في 1900/2/1 برسالة إلى فليس يقول فيها: "إني لست رجل علم ولا ملاحظاً أو مجرباً ولا حتّى مفكراً إطلاقاً أنا لست إلّا مغامراً conquistador بطبعي" (8، 2010، 21).

ويكشف اونفري عن وجود ميلٍ إلى الخرافة عند فرويد من خلال ما أورده هذا الأخير في كتابه (التحليل النفسيّ والتخاطر.. psychanalyse et telepathie) عن الارتباط القائم بين التنجيم والتحليل النفسيّ، وحديثه عن لقاءاته ووالديه ببعض العرافين في طفولته ويفاعته، وعن ثقته بما قالوا لوالديه عنه، وما توقعوه له من شهرةٍ في المستقبل.

وفيما يتعلّق بموقف فرويد من نشاطه العيادي، ورأيه بمرضاه، يحيلنا أونفري إلى ما نقله فرنتزي حول شغف فرويد بالمال واحتقاره لمرضاه؛ حيث أسر له فرويد بما يكنه من مشاعر في هذا الشأن بقوله: "المرضى مجرد دهماء، لا يصلحون إلّا لأن يضمنوا لنا عيشنا، وهم مادة للتعلم. وعلى كل حال ليس بوسعنا مساعدتهم" (9، 2010، 35).

ومن أوائل من انبرى للدفاع عن فرويد والتحليل النفسي الفيلسوفة والمحللة النفسيّة وعضوة الجمعية الفرويدية في باريز اليزابيث رودينيسكو. فقد وجهت نقداً عنيفاً إلى أونفري، واعترفت في مقالاتها التي نشرتها بعض الدوريات الفرنسيّة بأنّ الهجوم على فرويد ليس جديداً، وأنّه تعرض منذ بداية القرن العشرين لحملات نقدٍ مماثلة من أطراف متعددة. ورأت أن ما جاء في كتاب "أفول معبود..." لا يتعدى المغالطات والادعاءات المغرضة.

وذهب فريقٌ من المفكرين إلى أن السيدة اليزابيث ارتكبت حماقة اتهام أونفري بالعداء للساميّة من دون تقديم حجج علميّة تفضح أخطاءه وعيوبه، الأمر الذي أفقد موقفها المصداقية العلميّة، وجعلها تبدو وكأنها تستميل الأقلية وتطالب دوائر الضغط بالتدخل لصالح الساميّة واليهود الذين حملت كلُّ صفحةٍ من الكتاب العداء لهم حسب ادعائها.

ولفرنسا، كما لغيرها، خصوصياتها الثقافيّة التي يعدُّ الاهتمام بالأمراض النفسيّة في هذا البلد تقليداً ومكوناً من مكونات تلك الخصوصية. فإلى علمائها يعود الفضل في تغيير النظرة الخرافية إلى المرض النفسيّ وحلول النظرة العلميّة مكانها. وهذا ما يعدّه كثيرون مساهمة إيجابيّةً في التمهيد لظهور علم النفس. فقد وضع فيليب بينيل حجر الأساس لهذا التقليد العلميّ – الثقافيّ في نهاية القرن الثامن عشر بدعوته إلى البحث عن أسباب الأمراض العقليّة في عضوية المريض وليس خارجها وتبعه في هذا الاتجاه ممثلو الأجيال المتعاقبة من الأطباء والمحللين من أمثال اسكرول ثم ايتارد وسيغان وبرنهايم وليبو وشاركو وريبو وجانيه وغيرهم.

فلا عجب أن يحصى الآن أكثر من خمسة آلاف عيادة نفسيّة تستقبل ملايين المرضى سنويّاً. ولنا أن نتصور حجم الإمكانيات التي يتمتع بها المحللون النفسيون على استنفار وسائل الإعلام والثقافة للدفاع عن وجودهم ضدّ أي عملٍ كالذي قام به اونفري ومن قبله مؤلفو "الكتاب الأسود لنظرية التحليل النفسيّ" الصادر عام 2005 بوصفه تهديداً لمصدر عيشهم. وهم في مسعاهم هذا لا يتورعون عن استخدام كافة الأساليب الممكنة حتّى اللاعلمية وغير المحترمة.

ومع أن أونفري تناول نظرية فرويد بالتحليل والتقويم كجزءٍ من التراث العالميّ الذي يحقُّ لأيّ باحثٍ تأويلها وفق ما تسمح به المناهج العلميّة، فإنَّ حملة اتهامه بالعنصرية والمعاداة للساميّة واليهود لم تتوقف. وذهب أحد المشاركين في هذه الحملة إلى حدِّ تشبيهه بالطبيب "جون كوتييه" الذي كان مقرباً من حكومة فيشيه ومن الفرنسيين الذين أسهموا في دفع اليهود إلى المحرقة. ورأى فريقٌ أن كتاب أونفري يكمل "الكتاب الأسود..." الذي شارك في وضعه أربعون كاتباً ومتخصصاً من حيث دفاعه عن طريق العلاج النفسيّ القائم على تعاليم النظرية السلوكيّة والتواطؤ مع الشركات المصنعة للأدوية.

لكم كان من المفيد أن يسلط الأستاذ بركو الضوء على بعض جوانب نظرية فرويد، وكيف أثرت في الفكر الفلسفيّ والاجتماعيّ والأدبيّ والفنيّ واللغويّ، ويتتبع هذا الأثر ليغني تصوراتنا في هذا الميدان، وليضيف شيئاً جديداً إلى ما تقدمه مقررات الفلسفة وعلم النفس في الحلقة الثانويّة، فيرتقي بمعارف طلاب هذه الحلقة حول التحليل النفسيّ وأعمال مؤسسه. وكان من المفيد وربما بالمقدار ذاته أن يقدم باقة من آراء معارضي أونفري ونقاده مثلما تفعل الدوريات ومستخدمو الفضاء الالكتروني.

ولئن اتسم الحوار الذي أثاره كتاب أونفري داخل فرنسا بشيء من القسوة والعنف الذي كان مفاجئاً للجميع بسبب حساسيّة الموضوع لدى شريحة من المثقفين الفرنسيين واليهود منهم على وجه الخصوص، فإنّه لم يكن كذلك خارج فرنسا. فهو، وإن لم يخل من بعض الاتهامات الشخصيّة الموجهة إلى أونفري، كان هادئاً ومثمراً. وهنا يجدر التنويه بما قدمه الأخوة العرب والباحثون والمحللون من بلدان المغرب العربي تحديداً في مشاركاتهم الإيجابيّة من أفكار كان لها الفضل، ليس في إغناء هذا الحوار فقط، بل في إضفاء الطابع العلميّ عليه.

إن أمامنا الكثير ممّا ينبغي علينا عمله لامتلاك ما نرغب بوجوده من دوافع حقيقية تحركنا بتسارع أكبر نحو مزيدٍ من المعرفة التي تبعدنا عن الأنانية والتبعية، وتقربنا أكثر من الحقائق الموضوعيّة. وفيما يخصُّ الموضوع المطروح فإن سنة التطور الثقافي تمنحنا الحقّ في النظر إليه كجزءٍ من الثقافة العالميّة التي ورثناها عن أسلافنا، وتفرض علينا الاحتفاظ بها وتطويرها في الاتجاهات المناسبة لتسليمها –كأمانة – إلى الأجيال القادمة.

ليس في هذا التراث الثقافي العالميّ ما هو مقدس. وفرويد نفسه حذر من تقديس الآخر لعلمه لأن لقدرات الإنسان حدوداً يستحيل عليه تخطيها. وهنا يكمن سر عجزه عن الوصول إلى الكمال على الرغم مما يوهب من العبقريّة والنبوغ.

لقد كُتب الكثير عن فرويد والتحليل النفسيّ. وبالتأكيد سوف يكتب عنهما في المستقبل. لكن ما كُتب منذ ما يزيد عن النصف قرنٍ من الزمن في هذا المجال هو أكثرٍ ممّا كُتب في العقدين الماضيين. فألق الفرويديّة يخفُّ شيئاً فشيئاً؛ لأنّ التطور حمل الكثير من المعطيات التي تجاوزت جانباً كبيراً من أطروحات فرويد وأفكاره في ميدان التحليل والطب النفسيّ. ألم ينظر فرويد إلى الدافع الجنسيّ (الايروس) ودافع الموت (التاناتوس) كفرضيّة قد يثبت علم الأحياء الذي لم يجد فيه في شبابه ما يلبي طموحه بسبب تخلف أجهزته وأدواته تماسك صرحها البارع أو يطيح بها ويحكم عليها بالبطلان؟ (5، 1981، 47).

المراجع:

1ـ أفلاطون. المؤلفات الكاملة. موسكو، 1971.

2ـ بركو، عبد محمد. دفاعاً عن سيغموند فرويد. مجلة المعرفة، وزارة الثقافة السورية، العدد 570، السنة 50، آذار (مارس)، 2011.

3ـ رالف، رزق الله. سيغموند فرويد. المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، بلا تاريخ.

4ـ عامود، بدر الدين. علم النفس في القرن العشرين، ج 1. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

5ـ فاليري، ليبين. مذهب التحليل النفسيّ وفلسفة الفرويديّة الجديدة، ط1. دار الفارابي، بيروت، 1981.

6ـ فروم، اريك. فرويد. ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد. المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، 1972.

7ـ هال، كلفن. أصول علم النفس الفرويديّ. ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية، بيروت، 1970.

8 http://www.maghress.com/110657/alittihad

9 http://www.mnaabr.com/vb/2356=showthread.php?t

عمر أبو ريشة ..شاعر الحب والجمال ١٩١٠ ـ ١٩٩٠

يوسف عبد الأحد

تعود أسرة أبو ريشة في الأصل إلى فرع من آل القادري من البقاع اللبناني وتنتسب إلى الشيخ علي القادري, وهو أول من كنيّ بأبي ريشة بعد أن خلع عليه أحد سلاطين بني عثمان عمامة تعلوها ريشة مذهبة.

وشافع أبو ريشة والد عمر من مواليد القرعون في لبنان. ولد عمر أبو ريشة في مدينة عكا بفلسطين بتاريخ 1910/4/10, سجل والده ولادة عمر في (منبج) التابعة لمحافظة حلب سنة 1908 بالخطأ وبقي هذا التاريخ في السجلات بلا تصحيح.

عاد شافع أبو ريشة والد عمر بعد الحرب من فلسطين إلى حلب, وكان شاعراً مفطوراً وعيّن قائمقام في (منبج) التي ولد فيها البحتري وأبو فراس الحمداني ودوقلة المنبجي.

والدة عمر من أسرة عريقة بالصوفية, والدها الشيخ إبراهيم اليشرطي صاحب الطريقة الشاذلية في فلسطين.

قضى عمر طفولته في حلب, وتلقى دراسته في الكلية الأميركية بحلب, وعام 1931 دخل الجامعة السورية بدمشق, ثم انتقل إلى الجامعة الأميركية في بيروت, ثم أرسله والده إلى المعهد الفني بمانسشتر في إنكلترا ليدرس صناعة النسيج والكيمياء العضوية, لكنه انصرف إلى الشعر والأدب, وشغف بشعراء الإنكليز كشكسبير وشلي وكيتس وملتون وتنسون وغيرهم.

نال شهادة بكالوريوس في الآداب, وشهادة بكالوريوس في الأدب والعلوم, وشهادة دبلوم في العلوم.

عاد إلى حلب من إنكلترا في 16 مايو 1932.

في 9 أيلول 1939 تزوج الآنسة (منيرة مراد) وله ثلاثة أولاد رفيف وشافع وريف.

عام 1940 قدر المجمع العلمي العربي بدمشق موهبته الشعرية فانتخبه عضواً في المجمع.

عين عام 1949 ملحقاً ثقافياً لسورية في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية, فمندوباً بمؤتمر اليونسكو.

وعين عام 1950 سفيراً لسورية في البرازيل والأرجنتين والشيلي, فأقامت له حلب حفلاً تكريمياً اشترك فيه نخبة من الأدباء والشعراء, وألقى في هذه المناسبة الأديب والشاعر عبد الله يوركي حلاق (1911 ـ 1996) قصيدة رائعة جاء فيها:

«شاعر الخلد جئت أعلن حبي
وولاي فهاتِ منكَ المعاني
كم ملأت الحياة شدواً حنوناً
ولكم ثرت ثورة البركان
رُبَّ باغٍ طلبته فتحاشى
لاذع النقد وانطوى كالدخان
لا يرد الظلوم إلا انتقاد
من أديبٍ أو طعنة من سنان
ثورة الحر تخلق الوطن الحر
وتبني للمجد أعلى المباني»

المناصب التي شغلها الشاعر في السلك الدبلوماسي.

ـ سفير سورية في البرازيل والأرجنتين والشيلي (1949 ـ 1954)

ـ في الهند (1954 ـ 1958)

ـ سفير الجمهورية العربية المتحدة في النمسا (1959 ـ 1961)

ـ سفير سورية في الولايات المتحدة الأميركية (1962 ـ 1964)

يحمل أوسمة عدة تقلدها من دول مختلفة، وكان آخرها وسام الاستحقاق اللبناني من الرئيس اللبناني الياس الهراوي.

ـ عضو مراسل لمجمع اللغة العربية بدمشق.

ـ عضو الأكاديمية البرازيلية للآداب.

ـ عضو المجمع الهندي للثقافة العالمية.

برامج عن أبي ريشة في الإذاعة والتلفزيون

ـ إذاعة دمشق برنامج (مع الشعراء) إعداد الأستاذ رياض نعسان آغا أذيع يوم الاثنين في 1987/1/19,

ـ ضيوف الندوة: الدكتور عبد الكريم الأشتر والدكتور عمر الدقاق,

ـ تلفزيون الأردن,

برنامج (دفاتر الأيام) بث يوم الاثنين في 1988/2/15,

مرضه ووفاته

في منتصف عام 1976 أصيب عمر بجلطة قلبية نقل على أثرها إلى الولايات الأميركية للمعالجة، حيث أجريت له الفحوص الدقيقة لجراحة القلب والعلاجات اللازمة، وكانت العملية ناجحة وتماثل للشفاء.

وفي عام 1990 عاودته الجلطة وغرق في غيبوبة طويلة أودت بحياته في 14 تموز 1990.

نعته الإذاعات العربية والأجنبية والصحف، وعددت مآثره الخالدة. وقد أوصى الفقيد أن يدفن في مسقط رأسه حلب؛ فنقل جثمانه إليها من المملكة العربية السعودية واحتفل بتشييعه بعد ظهر يوم الثلاثاء في 17 تموز 1990, وصلي على جثمانه في الجامع الأموي الكبير, ورثته الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة آنذاك ممثلة القائد الخالد المرحوم حافظ الأسد، كما رثاه نخبة من كبار الشعراء والأدباء، ومنهم الأديب والشاعر الكبير عبد الله يوركي حلاق بقصيدة عصماء.

* * *

عرس المجد

ألقيت هذه القصيدة في الحفلة التذكارية التي أقيمت في حلب ابتهاجاً بجلاء الفرنسيين عن سورية سنة 1947

يا عروس المجد، تيهي واسحبي
في مغانينا ذيول الشهب
لن تري حفنة رمل فوقها
لم تعطر بدما حر أبي
درج البغي عليها حقبةً
وهوى دون بلوغ الأرب
وارتمى كبر الليالي دونها
لين الناب، كليل المخلب
لا يموت الحق مهما لطمت
عارضيه، قبضه المغتصب

* * *

من هنا شق الهدى أكمامه
وتهادى قولباً في موكب
وأتى الدنيا فرقت طربا
وانتشت من عبقه المنسكب
وتغنت بالمروءات التي
عرفتها في قناها العربي
أصيدٌ، قاضت به صحراؤه
فأعدته لأفق أرحب
هب للفتح، فأدمى تحته
حافزُ المهر جبين الكوكب!!
يا عروس المجد، طال الملتقى
بعدها طال جوى المغترب

***

عمر أبو ريشة

أعماله الشعرية

1 ـ شعر ـ مطبعة العصر الجديد ـ حلب 1936
2 ـ من عمر أبو ريشة ـ دار مجلة الأديب ـ بيروت 1947
3 ـ مختارات من شعر أبو ريشة ـ المكتب التجاري بيروت 1959
4 ـ ديوان عمر أبو ريشة ـ المكتب التجاري بيروت 1959
5 ـ غنيت في مأتمي ـ دار العودة ـ بيروت 1974
6 ـ من وحي المرأة ـ دار طلاس ـ دمشق 1984
7 ـ ديوان أمرك يا رب ـ دار الأصفهاني ـ جدة
8 ـ ديوان (السفير الجوال) بالإنكليزية 1959

المسرحيات:

1 ـ محكمة الشعراء ـ 1928
2 ـ ذي قار ـ مطبعة المعارف ـ حلب 1931
3 ـ عذاب ـ أوبرا من فصل واحد نشرت بمجلة (الحديث) بالعدد الأول كانون الثاني 1936
4 ـ الطوفان ـ نشرت بديوانه الأول 1936
5 ـ سمير أميس ملكة آشور وبابل 1943
6 ـ أيدي يوزميديس ـ لبدرو بلوك تعريب عمر والياس خليل زخريا دار الحضارة بيروت 1962
7 ـ مسرحية تاج محل.
8 ـ ملحمة الهزيمة ـ تصوير نكبة فلسطين

الكتب التي تناولت عمر بالبحث والدراسة

1 ـ تحت المبضع ـ محمد روحي الفيصل ـ منشورات دار الحكمة حمص 1949 ص 55
2 ـ الجديد في الأدب العربي ـ د. عيسى الناعوري ـ المطبعة البوليسية حريصا 1950 ص 44 ـ 47
3 ـ الشعر والتجديد ـ محمد عبد المنعم خفاجي ـ رابطة الأدب الحديث ـ مصر 1957 ص 290
4 ـ محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب ـ سامي الكيالي 1957 معهد الدراسات العربية ص 222 ـ 225.
5 ـ أعلام الأدب والفن ـ أدهم الجندي ـ مطبعة الاتحاد ـ دمشق 1958 ص 29
6 ـ الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث ـ معهد الدراسات العربية العالية مصر 1958 ـ د. جميل صليبا ص 103 ـ (160 ـ 164) (223 ـ 225) 229
7 ـ شعراء العرب المعاصرون ـ أحمد زكي أبو شادي ـ 1958 ـ ص 169
8 ـ من هو في سورية الوكالة العربية للنشر والدعاية ـ جورج فارس ـ دمشق 1994 ص 12
9 ـ العراق في الشعر العربي والمهجري ـ د. محسن جمال الدين ـ بغداد 1965 ص 365
10 ـ شعراء سورية ـ أحمد الجندي ـ دار الكتاب الجديد بيروت 1965 ص 110 ـ 127
11 ـ مجددون ومجترون ـ مارون عبود ط (2) 1961 دار الثقافة بيروت
12 ـ الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ـ د. عمر الدقاق ـ دار الشرق حلب 1963
13 ـ الشعر الحديث في الإقليم السوري ـ د. سامي الدهان القاهرة 1960 ص 316
14 ـ من خيوط الحياة ـ سامي الكيالي ـ المطبعة التجارية حلب 1963
15 ـ دمقس وأرجوان ـ مارون عبود ـ دار الثقافة ـ بيروت 1966 ـ ص 130
16 ـ الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ـ أنيس الخوري المقدسي ـ دار العلم للملايين 1967
17 ـ موسوعة من هو في العالم العربي (بالإنكليزية) بيروت 1967 ـ 1968 ط 2 ص 764
18 ـ أعلام من لبنان والمشرق ـ سلسلة الموسوع في الأدب العربي ـ جورج غريب دار الثقافة 1968 ص 29 ـ 34
19 ـ الأدب العربي المعاصر في سورية ـ سامي الكيالي ـ دار المعارف مصر 1968 ص 368
20 ـ الشعراء الأعلام في سورية ـ سامي الدهان ط 2 دار الأنوار بيروت 1968
21 ـ الأدب العربي الحديث للصف الثالث ثانوي 1969 ـ 1970 ص 44
22 ـ دراسات في الشعر العربي المعاصر ـ د. شوقي ضيف ط 4 ـ دار المعارف مصر 1969 ص 229
23 ـ فنون الأدب المعاصر في سورية ـ د. عمر الدقاق ـ دار الشرق العربي بيروت 1971 ص 224 ـ (429 ـ 430).
24 ـ تاريخ الشعر العربي الحديث ـ أحمد قبش ـ دمشق 1971 ص 272
25 ـ عمر أبو ريشة شاعر الجمال والقتال ـ إيليا الحاوي ـ دار الكتاب اللبناني بيروت 1972
26 ـ الموسوعة العربية الميسرة بإشراف شفيق غربال ط2 مصر 1972 ص 1236
27 ـ أزهار الأشعار بالإنكليزية ـ آرثور جون أربري ـ جامعة كمبردج لندن 1975 قصيدة فيض الرحمة.
28 ـ من أعلام العرب في القومية والأدب ـ عبد الله يوركي حلاق ـ حلب 1977 ص 85 ـ 93
29 ـ حركة الشعر الحديث في سورية ـ د. أحمد بسام ساعي ـ دار المأمون للتراث 1978
30 ـ مجددون ومجترون ـ مارون عبود ـ دار الثقافة بيروت 1979 ص 204 ـ 214
31 ـ الرومنتيكية في الشعر العربي المعاصر في سورية ـ جلال فاروق الشريف ـ دمشق 1980
32 ـ معجم كتاب سورية ـ أديب عزت ـ دار الوثبة ـ دمشق 1983 ـ ص 7 ـ 8
33 ـ المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ـ د. نسيب نشاوي مطابع ألف باء دمشق 1980 ص 291
34 ـ الإبداع من الرؤية القومية إلى المنظور الإنساني ـ خالد محي الدين البرادعي تونس 1983
35 ـ عمر أبو ريشة دراسة في شعره ومسرحياته ـ محمد إسماعيل دندي ـ اتحاد الكتاب 1988
36 ـ يحدثونك عن أنفسهم ـ هاني الخير ـ جزء 3 ـ دمشق 1989 ـ ص 37 ـ 46
37 ـ من أعلام الفكر العربي والعالمي في القرن العشرين ـ سليمان سعد الدين دمشق 1991 ص 117
38 ـ من أعلام الأدب الحديث ـ عيسى فتوح ـ دار المنارة دمشق 1992 ص 127 ـ 131
39 ـ عبقريات من بلادي ـ عبد الغني العطري ـ دار البشائر 1995 ص 161 ـ 182
40 ـ من رواد أدبنا المعاصر ـ يعقوب العودات ـ عمان 1995 ص 219 ـ 225
41 ـ موسوعة أعلام سورية في القرن العشرين سليمان سليم البواب 1999 جزء أول ص (20 ـ 21)
42 ـ شخصيات سورية في القرن العشرين ـ هاني الخير الجزء الثالث دار الفتاة 2003 ص 7 ـ 8
43 ـ وجوه عرفتها ـ رياض عبد الله حلاق حلب 2010 ص 216 ـ 220
44 ـ شعراء من بلادي ـ السيد علي إبراهيم ـ منشورات حمد
45 ـ قضايا الشعر المعاصر ـ د. أحمد زكي أبو شادي ص 130
46 ـ عمر أبو ريشة «إطلالة وقطوف» مصطفى عكرمة (دراسة تحليلية).
47 ـ أبو ريشة وتأثره بالآداب الإنكليزية ـ أطروحة ليسانس أعدها الدكتور يحيى أبو ريشة.

هل يعود إلى المقامات ألقها؟.. قراءة في مقامات الدكتور غازي طليمات

وليد السراقبي

تعرّف المقامة بأنها قصَّة قصيرة يبثّ فيها الكاتب ما يشاء من أفكار أدبية أو فلسفية، أو يسجِّلُ فيها ما يعنّ له من خَطَرات وجدانه، أو يَفْرِش فيها لمحة من لمحات الدّعابة والمجون1.

كان هذا الفن أظهر أنواع النثر في القرن الرابع الهجري. وقرَّ عند كثير من الدارسين أن بديع الزمان الهَمذَاني مبتدع هذا الفن وصاحب الريادة في ابتكاره، حتى إنه ما إن تذكر المقامة حتى يكون بديع الزمن أول اسم يلوح في الأفق. والتمس بعض الدارسين سبباً لذلك هو نزعته الفارسية، لما شُهِر عند الفرس من حرصهم على القص والحديث المصنوع2.

لكن البحث التاريخي يوقعنا على المبتكر الحقيقي لهذا الفن، وأعني به ابن دريد الأزدي اللغوي المعروف صاحب معجم الجمهرة المتوفى سنة 321هـ. يؤكد ذلك ما ذكره أبو إسحق الحضري لدنْ حديثه عن بديع الزمان.

«... ولما رأى – يعْني بديع الزمان - أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، وفي معارض عجمية، وألفاظ حوشية، فجاء أكثرُ ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبَها الأسماعُ، وتوسّع فيها، إذ صرّف ألفاظها ومعانيها، في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربعمئة مقامة في الكُدية تذوب ظَرفاً، وتقطر حسناً، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً لا معنى، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها بين رجلين: سمّى أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعلهما يتهاديان الدّر، ويتنافثان السحر، في معانٍ تضحك الحزين، وتحرِّك الرّصين، يتطلّعُ منها كلَّ طريفة، ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية»3.

ولكن، إذا كان ابن دريد مبتكر هذا الفن، «فإن عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر... والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في أذهانهم غير فن بديع الزمان، فهو بذلك منشئ هذا الفن في اللغة العربية». فعلى يديه استوت جنساً أدبياً وفناً من فنون النثر العربي في القرن الهجري الرابع، وغدت لها معالمها ومذاقها، وصوّة يتهدّى بها من جاء بعده من الأدباء والمنشئين، كابن بناتة السعدي (ت 405 هـ) الذي لم تحفظ عنه إلا مقامة واحدة4، وابن ناقيا المتوفى سنة (485 هـ) الذي أنشأ مقامات عدة تختلف نهجاً وأسلوباً عن مقامات البديع.

ولما جاء أبو محمد القاسم بن علي الحريري جعل «فن المقامات شريعة أدبية، حتى غدت مقاماته مضرب المثل في الفصاحة والبيان، حتى عُدّ أشهر من طرق باب هذا الفن، وإليه أُرجع الفصل في ذيوعه وانتشاره»5.

وقد كان لبديع الزمان فضل انتقال هذا الفن إلى الشعوب الأخرى فانتقلت إلى الفارسية، فكتب أبو بكر البلخي (ت 599 هـ) أشهر المقامات في الأدب الفارسي، أدارها على موضوعات مختلفة، كالمناظرات بين الشباب والشيخوخة، والربيع والخريف، وغير ذلك....

وعرفها الأدب العبري أيضاً بفضل يهود بن شلومو الحريزي مترجم مقامات الحريري إلى العبرية، ومنشئ خمسين مقامة على نمطها دعاها (سِفر تحكموني).

ونشر جبريل قرداحي في بيروت سنة 1889م خمسين قصيدة على نمط مقامات الحريري، وهي منظومة باللغة السريانية6.

وعلى امتداد الأزمنة كان لهذا الفن وجوده واشتهاره، فكتب ابن الصقيل (ت 701 هـ) مقامات تقوم على موضوعات نحوية وفقهية، ووصف ابن الوردي (ت 749 هـ) في مقاماته البلدان، وربما يمكن أن ندعي أن السيوطي كان خاتمة من كتبوا في هذا الفن من المتأخرين، فكانت مقاماته من أشهر مقامات العصور الوسطى، لكنها «أشبه ما تكون بالرسائل المسجوعة، دون بطل راوٍ تناولت موضوعات الطيب وفوائده، وأنواع الرياحين والأزاهير، بالإضافة إلى موضوعات جدلية في البعث والجزاء، وصوفية...»7.

وشهر في العصر الحديث من مرتادي هذا الفن حسن العطار، في مصر، والألوسي في العراق، وفارس الشدياق وناصيف اليازجي في بلاد الشام. وكان آخرهم أكثر متقني هذا الفن وضابطيه، فقد خلّف ستين مقامة بطلها ميمون بن خزام وراويها سهيل بن عباد8.

ويكاد هذا الجنس الأدبي يندثر وتنمحي آثاره، فقد افترشت الساحةَ فنون الرواية والقصة، والقصة القصيرة، والأقصوصة، والقصة القصيرة جداً، فركنت المقامات في بطون الكتب، يرتادها من يرتادها، ويعود إلى الاستماع بها من يعود دراساً أو متذوقاً أو مقارناً. لكن راق لأستاذنا الدكتور غازي مختار طليمات أن يرتاد هذا الفن ليكون مراحاً عن جفاف النحو وقواعده، وتفيؤاً لظلال القَصّ وتصويره، فيكتب في عدد من الصحف المحلية والعربية جملة من المقامات يبقيها «وثيقة لهذا الفن المتألق، الذي لم يعد كثير من طلاب العلم والأدب يعرفون شيئاً عنه، ولتكون وسيلة معرفة، وأسلوباً نقديّاً لكل من يحاول إصلاح المجتمع ويسعى إلى تطويره»9.

وإذا نظرت في سيرة الرجل العلميّة، يلفت نظركَ تلك الميادينُ الرحيبة التي يرتادها الدكتور غازي طليمات، من دراسات نحوية، وتحقيقات لكتب لغوية أو نحوية، أو كتب تعليميَّة تطبيقيّة تتأبى على المقصد التجاري، أو مسرحيات شعرية (المحنة، عين جالوت، محكمة الأبرياء) أو دواوين شعرية (طواف لا ينتهي / 2008م) أو دراسات عروضية (عروض الشعر العربي، 1994م، موسيقا الشعر، 1991م)، أو دراسات أدبية على رأسها يأتي مشروعه لتأريخ الأدب العربي شعره ونثره في موسوعة تبلغ أربعة عشر جزءاً، صدر منها حتى الساعة ثمانيةُ أجزاء.

ولا أبالغ إذا قلت: إنَّ الدكتور غازي طليمات من الأمثلة النادرة، إن لم يكن مثالاً نادراً حقّاً لرجل العلم الصبور، والباحث الجاد الذي يصبر أشدّ ما يكون الصبر على لَأواء البحث، والقارئ النّهم، والأكاديمي الذي لا يعرف غير مناهل العلم نسباً، ولا يقرّ إلا بأنه راغب في الازدياد من العلم.

ويكفيك برهاناً على ما نقول صبره على تلخيص قصة الحضارة لـ (ول ديورانت) في خمسة عشر جزءاً، بأسلوب عربي مبين تبزّ الأصل المترجم لغة وإشراقاً وتعلو عليه10.

أما مقاماته فتقع في ستٍّ ومئتي صفحة من القطع المتوسّط11، وتضم ثلاثاً وثلاثين مقامة، أولها: المقامة الدكتورية، وآخرها المقامة الفنية. وفيما بينهما مقامات بعناوين مختلفة، كالمقامة الجامعية، والمقامة الرمضانية، والمقامة الطنبرية، والمقامة التقاعدية...

وتتعدد المقاصد التي ترودها المقامات، ولكنها كلّها تقصد إلى تشريح كثير من العلل والأدواء التي تنخر ببنيان مجتمعنا العربي، وتعشش في زواياه، وتهدم الثابتَ من أركانه.

وبدءاً من العنوان الذي اختاره علماً عليها يمكننا أن نتصوّر أكثر مضامينها؛ والعنوان – كما غدا معروفاً- يشكل عتبة أي نص أدبي. والعنوان الذي اختاره صاحب المقامات عنوان مباشر لا مواربة فيه ولا همز ولا لمز، فهو «مقاماتٌ ساخرةٌ من عيوبٍ سافرة»؛ فالعنوان يوحي بأن مدارها على السخرية من أمراض واضحة لكل ذي عينين.

فتعالج هذه المقامات مشكلات شتى، وتفضح عيوباً متراكبة متراكمة، منها ما يخصّ الثقافة، ومنها ما يتعلّق بالسياحة، ومنها ما يرتبط بالخدمات، وما ينصبّ على العلم والتعالم، والخلل الوظيفي، والأمراض الاجتماعية، والفنية، والصحيَّة.

ولا يخفى أيضاً على دارس المقامات أنّ الكاتب يتقمَّص شخصيتي الرواية والبطل، وأعتقد أنَّ المؤلف قد أصاب في اختيار اسمي البطل والرواية، فالراوية «حبيبُ بنُ لبيبٍ»، وهو المؤلف ذاته، إذ إن البطل حبيبٌ إلى نفس الكاتب، وهو إلى جانب ذلك لابدَّ أن يمتلك من خصائص الحصافة والفهم ما يقدره على النقد والتصوير، فليس كل أحد يقدر على ذلك، وإن كان ممن يلمس ذلك بيديه، أو يصطلي بناره.

أما البطل فهو سيّار بن عيَّار، ويلحظ ههنا قدرة الكاتب على اختيار الاسم للبطل مستعملاً صيغتي مبالغة اسم الفاعل، ولعلَّ هذا يعكس لنا أثر المعجم اللغوي للكاتب في اختيار المباني اللغوية المفصحة عن المعاني. إنه سيَّار، كثير السَير والتّطواف في جنبات المجتمع وبين ظهرانيه، وهو إلى جانب ذلك عيَّار، أي أنه كثير النقد لما حوله، وهو يوحي أيضاً بأنه واحد ممن يحترفون العيارة والشطارة والكُدية.

وليس في الموضوعات التي تعرضها هذه المقامات عرضاً فاضحاً ما هو من بنات الخيال، بل إنَّ ما فيها لينفضح بما ينضح به الواقع نضحاً.

ولا بأس بنا وقد قدّمنا ما قدّمنا عن فن المقامات عامة، وقبل أن ندخل إلى البنية الفنية لها، من أن نلمَّ ببعض موضوعاتها، ومنها:

البُعْد العلمي: وهذا يرتبط بالبنية الأخلاقية لبعض أفراد المجتمع، ويقوم على الادّعاء والانتفاخ والتزييف. ومن ذلك سَعْي حثيث لدى بعض الأدعياء للحصول على الألقاب العلميَّة التي لا تخفي وراءها إلا ادّعاء وضحالة. ويمثّل ذلك «المقامة الدكتورية»، ومدارها أن صديقاً للبطل عرف بالكسل في تحصيل العلم والتخلّف عن ركب المتعلّمين... ولكن تمضي السنونَ، ويعرّج البطل «سيّار بن عيّار» على دار صديقه التي كان يتردّد إليها، فيقول: «بعد أربعة أعوام، بالكمال والتمام، من التردّد على هذا المضيف اللطيف، أتيت يوماً داره حيث أشتو وأصيف، فوجدتها خاوية، لا تسمع فيها لاغية. فرحتُ أضرب الباب والنوافذ والجدران، حتّى خرج الجيران، وكلهم يسأل عما أفعل. فقلت أين فلان؟ قالوا: رحل إلى شهادستان. وكدت أسألهم عن هذا البلد، ثمّ سكتّ كيلا أُتّهم بالجهل والفَنَد12. فمضغت اللسان، بأسنان الكتمان، وتجرَّعت أشواك الإحساس بالتذلُّل. لئلا يرميني الناس بالتسوّل، وعدت إلى قريتي بخفّي حُنَين، كأنني دائنٌ غلِق عليه الدين».13

وبعد سنين، وقد شدَّ البطل سيّار بن عيار عصا الترحال إلى بلد عربي قصيّ، وبينما كان يتصفّح جريدة يبحث فيها عن خبر جديد، وقع بصره على إعلان عن محاضرة يلقيها فلان الذي تخرّج من «شهادستان» وما كادت عين البطل تصدّق، ولكنَّ «الاسم هو الاسم، مشفوعاً (بالدكتور) للبرهان على وفرة العلم».14 ولا يدري البطل كيف أمضى ليلته تلك في انتظار إشراق شمس الغد، ومجيء الوقت المحدَّد للمحاضرة، فلما كان الغد غدا إلى المكان، الذي حدّده الإعلان، وانزوى سيّار بن عيَّار خلف رجلٍ طُوال، شامخ الراسخ كالتمثال، ليرى المحاضرَ ويقطعَ الشك باليقين، وههنا عصفت في نفسه ريح التساؤل والتردد، فمع «أنّ رؤيته أثبتت شخصيته ودَكْترته، فقد بقيت الأمارّة بالسوء تشكو من شكوكها وتنوء، وتقول: ليست الدكترة بالشكل، بل بالعقل، ومحلّها الإبداعُ لا النّقل». ولم ير البطل بدّاً من أن يضع المحاضر على المحك فيناظره ويحاجّه ويقرع البرهان بالبرهان. يصوّر ذلك فيقول: «وبعد أن فرغ المحاضر قلت في نفسي: آنَ الأوانُ، وجاء وقت الامتحان. قمْ يا رجلُ وناظر المحاضر، لكن المحاضر أعلن الفِرار من الحوار، متعلّلاً بأوهى الأعذار، ونزل عن المنصّة، وفي حلقي مما أكظم ألفُ غصّة».15

وهنا لحق سيّار بن عيّار بالمحاضر، وعدا وراءه عَدْو الظليم، ولكن المحاضر انطلق «بسيارة وضاءة كالدرَّة. فاقتفيته بسيارة أجرة. وقبل أن يقتحم باب الدار قلت: يا دكتور فلان, أنا سيّار بن عيَّار».

فلمّا تعرَّف الصَّوت التفت إليّ، وتلقَّى بذراعَيْهِ ذراعيَّ وعانقني أطول عناق، يعدلُ طول الفراق. ثم قلتُ له: أصبحتُ بشهادتي مختارَ حارتي، فباركْ لي بالمخترة قبل أن أبارك لك بالدكترة: فباركَ وباركتُ، ولم يسألني كيف، ولكنني سألتُ، فاندفع يقول:

لما ضنّت عليّ الشآم بالإجازة، خُيِّل إليَّ أنني لن أحملها قبل أن يحملني نعشُ الجنازة، فيمّمت شهادستان قبل الموت، وقبل أن يعزّ الإدراك بعد الفَوْت. فقلت: رحمك الله يا فلان أين تقع شهادستان. فقال: دعْك من أين ومتى وأيّان، وسلْني كيف نجحتَ وأفلحْتَ، وما الذي بذلت، حتى وصلت؟ قلت: قد سألتُ.

قال: قدَّمْتُ إلى جامعتها أوراقاً من جامعة الشام، عليها أرقامٌ وأختامٌ، ومعها كدْسٌ من دولارات العم سام، فنظر أهل الجامعة إلى العم، وتعاموا عن الرقْم والخَتْم، وقالوا: أوراقك تعدلُ إجازة. من الدرجة الممتازة، متى تسجّل لنيل الماجستير؟ قلت: فيم التسجيل والتأجيلُ، والتعجيلُ أحزم وأفضل، لمن نالَ ونوّل. قالوا: لا بدّ منهما، تسجّل اليوم، وتناقش بعد شهر. فمرَّ الشهرُ مرور دهر، وعدت بعده وتحت إبطي رسالة في الغناء والقوافي، أقارن فيها فهد بلّان بوديع الصافي. وناقشت القوم أروع نقاش. وأنا – كما عهدتني – مع الكلاب كلبٌ هرَّاش، وفي ساح الكفاح كبشٌ نطّاح، فأفحمتُ القوم، وحملتُ الماجستير من ذلك اليوم».16

وهنا سأله سيّار بن عيّار عن سرّ شهادة الدكتوراه، فقال: «مملكة شهادستان مبدؤها واضحٌ فاضح، كما تراني وأراك، وكما تضيء الأقمار في الأفلاك. قلت: وما هو؟ قال: مبدؤها هاتِ وهاتْ، أي: ادفعْ وسجِّلْ، وعجِّلْ ولا تؤجِّلْ، كي تُخْليَ المكان لسواكَ، كما تخلي فاكَ، من سِواكِ الأراكِ».

وانتهى الأمر بسيَّار بن عيّار إلى أن يقف على حقيقة المحاضرة التي ألقاها خرِّيج «شهادستان» فقال متسائلاً:

«حدِّثْني عن المحاضرةِ بعد الدكْتَرة، أهي مستعارةٌ أم مُستأجرة؟ قال: كتبها لي فلانٌ بالأُجْرة، وأقْرَأنيها حتَّى علَّمنيها فُلانٌ بالسّخْرة، فقرأتُها على المنبر قراءةَ الببغاءِ، كأنَّني من البَلغاء. فهل أنا آثمٌ في الاتجارِ بالألقابِ، وتسخيرِ الأحبابِ ذوي الألبابِ؟ وما الحدّ الذي يُعَاقبُ بهِ سفيهُ، إذا ارتدى جُبَّة فقيه؟ ففارقتُه، وأنا أُنْشِدُ بالهمْس، لعلّيَ أَشفي النفْس من داءِ النّحْسِ:

سيّارُ حَسبُك مَفْخرةْ
بالعلمِ أو بالمخْترةْ
واقصِدْ شهادستانَ علّـ
ـكَ أنْ تفوزَ بدكترةْ
فيها التفاخُرُ والتكاثرُ والغِنى والبَخْترةْ

البعد الثقافي: كان المشهدُ الثقافي عامراً بالحيوية قبل أن تغزو الفضائيات البيوت، فكان ارتياد المراكز الثقافية والنوادي الاجتماعية دَيْدن محبي الثقافة والعلم، يتحمّلون في سبيله ما يتحملون.

وقد رصد الدكتور غازي طليمات هذه الظاهرة التي لم يعدْ لها في الواقع الحقيقي مثل هذا الحضور، فقد دُعي عمر أبو ريشة لإحياء أمسية شعرية في حمص وحماة، وغصَّت الأماكن بالحاضرين، فكتب د. غازي طليمات مقامة دعاها «المقامة الحموية» يسرد فيها على لسان بطله سيّار بن عيّار ما جرى له في واحدة من هذه الأماسي فقال: «قادني النزوع العاطفي والحرص، إلى المركز الثقافي بحمص، فقصدْتُه لأصفّي كَدَر المعيشة، بالإصغاء إلى أبي ريشة. فإذ المركز بالناس غاصٌّ، لا يقتحمه إلا قنّاصٌ أو غوّاص. قلت: زاحمْ يا ولد، ولا تأبهْ لأحد. زاحمتُ فزُحْمِتُ، ولُطِمْتُ ولُكِمْت، ثم لَفظني العبَابُ الضّحابُ، من مصراع الباب، فوقفتُ بعيداً عن المائدة، كالقطّة الشاردة، لعلّي أظفر ببعض الفائدة، لكنني خرجت من المأدبة بلا عائدة. وأخوك في مآدب الأدب، من تلاميذ أشعب، يطمع فيما يسمع، ويبلَعُ ولا يشبعُ».17

ولكنّ سيّار بن عيّار لم يقنع بهذه الأمسية، فلم يظفر منها بطائل، فقد تناهى إلى سمعه أن عمر أبو ريشة قد دُعي إلى لقاء أدبي في حماة، قرَّر أن يتبعه، فقال يصف ما وقع له: «فطرتُ إلى حماة، طيرانَ البُزاة، واقتحمتُ الحفل اقتحام الغُزَاة، فظَنَّ الرُّقباءُ أنني من الأدباء، فأعزُّوني أيَّ إعزاز، وأقعدوني بين وليد قنباز وعدنان قيطاز، فهششتُ وبششتُ، وانتعشتُ بعدما انكمشت».18

ولما انتهت الأمسية وأعلن العريف اختتامها أراد سيّار بن عيّار

البقية.....ص23

حوار مع الأديب يوسف جاد الحق

رياض طبرة

من يقرأ رواياته ومسرحياته وأبحاثه السياسية، سيدرك على الفور كم يعيش الوطن في قلبه ووجدانه؛ بدءاً من التفاصيل الصغيرة التي ما نسيها أبداً، وصولاً إلى اللحظة التي كتب فيها آخر مؤلفاته هذه الأيام، رواية (الخروج)، وهي الجزء الثاني من ملحمة الشعب الفلسطيني التي مثلت الجزء الأول منها رواية (قبل الرحيل). أما مجموعاته القصصية التي تجاوزت العشر، فمعظمها ينهل من الجرح الفلسطيني، وقصص النضال والمقاومة التي لم تتوقف قط. هذا بالإضافة إلى كتاباته السياسية والأدبية في معظم الصحف العربية منذ النكبة حتى يومنا هذا.

فلسطين متجذرة في اشتياقه، وفي عشقه، وفي مبادئه، حتى في لهجته التي لم يغيرها منذ مغادرته «يبنا»، التي هي إحدى ضواحي مدينة «يافا».

في لقائنا مع الكاتب «يوسف جاد الحق» كان الحوار المشوق التالي:

س 1: في أي بيئة نشأت وكيف كانت البدايات..؟

ج 1: كانت نشأتي الأولى في بلدة ريفية تقع جنوبي مدينة يافا اسمها (يبنا). وهي بلدة قديمة تحفل بالآثار الرومانية، على وجه الخصوص، والإسلامية. تكتنفها السهول وبيارات البرتقال من كل جانب، تفصلها عن البحر بضعة كيلومترات من الرمال، التلال العالية والمنخفضات والسفوح، رمال صفراء ناعمة تلمع تحت ضوء الشمس كالذهب. تتوزع على مسافات متباعدة أشجار التين وكروم العنب وأشجار الكينا الباسقة، ترخي جميعها ظلالاً رائعة فوق الرمال الذهبية الساحرة.

أما كيف كانت البدايات؟! فهذه قصة طويلة يمكن أن نعرج على جزء يسير منها. لكنها بدأت مع سنوات الدراسة الابتدائية؛ إذ لم يكن في مدرستنا أكثر من الصف السابع. كان معلم العربية الأستاذ شفيق موسى ـ رحمه الله ـ أديباً وشاعراً تأثرت به كثيراً، لما تميزت به شخصيته الفذة من قوة ونبل فضلاً عن ثقافته العريضة.

أذكر أنه كان يختار في حصة الإنشاء ما كتبه واحد أو اثنان من التلاميذ كأنموذج أعجبه، فيعمد إلى تلاوته على مسمع من التلاميذ تشجيعاً لهم على أن يحذوا حذوه، وغالباً ما كنت أحد هذين الاثنين، أو كنت الأوحد، مما أوغر عليّ صدور رفاقي التلاميذ. ثم كان الرحيل عام 1948 ولم أكن قد جاوزت ذلك السابع الابتدائي. كنت مشغوفاً بالقراءة، فأعمد إلى مكتبة أخي الأكبر، الشيخ محمد، وهو أزهري مطلع، يملك أيضاً خطاً جميلاً في الكتابة، ومكتبته تحفل بالقديم والجديد من الكتب القيّمة. هذا فضلاً عن شرائي، بما تيسر لي من مصروف صغير، المجلات المصرية المعروفة يومئذ.

كان للنكبة التي حلت ببلادنا عام 1948 تأثير كبير في تفكيري ونفسيتي ومسلكي. كتبت في البداية مقالات أردّ فيها على المتحاملين على

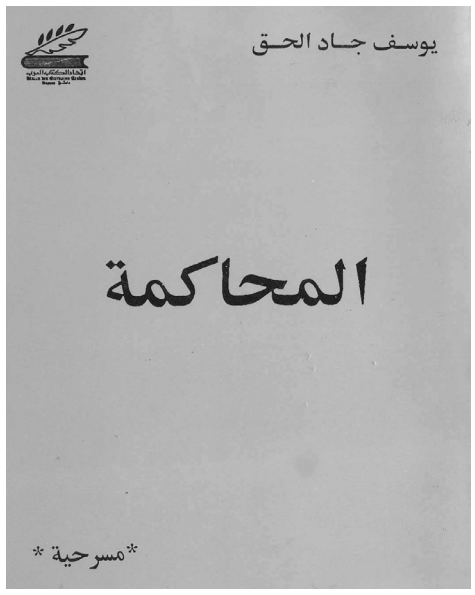

الشعب الفلسطيني من بعض كتّاب العرب، وكان فيها الكثير من التجني والإساءة، فوجدتني أرد عليهم بدافع الغيرة على وطني وشعبي في الصحف ذاتها التي يكتب فيها أولئك.

وعلى الرغم من أن أولئك الكتاب كانوا كباراً ومشهورين، إلا أن ردودي ـ التي أعود لقراءتها اليوم ـ كانت مقنعة ومفحمة لصدقيتها، وذات قيمة تستحق النشر في الصحف المحلية، مما شجعني على المضي في ذلك. إضافة إلى ذهابي أواخر الخمسينيات إلى كتابة القصة الفلسطينية القصيرة، التي لم أكن أعرف من الناحية الفنية كيف تكتب. كنت أكتب القصة تعبيراً عن حالة فلسطينية ما، تأثرت بمعايشتها، أو قرأت عنها، وهي في أغلبها، قصص مأساوية ذات شجون. شجعني على المضي في كتابة القصة تحديداً، أن إذاعة صوت العرب في القاهرة، أتاحت لي فرصة إلقائها من تلك الإذاعة، كلما كتبت واحدة منها ـ وكان ذلك في أعوام الوحدة بين مصر وسوريا. وكان لذلك أيضاً أكبر الأثر في تشجيعي على مواصلة الكتابة، وفي الشأن الفلسطيني خاصة، والعربي عامة. ذلك كله وقع لي، ولم أكن قد تجاوزت في تحصيلي الدراسي أكثر من الصف السابع الابتدائي. كنت أقول لنفسي: ما دامت قصصي هذه تصلح للنشر في إذاعة؛ فمعنى ذلك أنني أحسن كتابة قصة..!

س 2: من الذي دعمك مع أول عمل أدبي كي تتابع في هذا المجال..؟

ج 2: أكثر من واحد، وأكثر من جهة؛ لكن الفضل الأول كان للمرحوم الدكتور كامل السوافيري. وهو فلسطيني أقام في القاهرة قبل النكبة. جاء إليها ليتابع دراسته الجامعية، كان الرجل على صلة وطيدة بمعظم أدباء مصر في ذلك الحين. كان يأخذ بيدي ليعرفني إليهم، فأشارك في منتدياتهم وندواتهم في دار نادي القصة، ورابطة الأدب الحديث.

من هؤلاء الكبار: نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، ومحمود تيمور، وعبد الحميد جودة السحار، وعلي أحمد باكثير، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، وعبد الرحمن الشرقاوي،

د. يوسف جاد الحق

وصالح جودت، والدكتور الناقد عبد القادر القط، وأمينة السعيد ومحمود أمين العالم، والناقد رجاء النقاش..

والشخصية الثانية التي أسهمت في ظهوري ككاتب، كانت المرحوم الأستاذ علي هاشم رشيد، (شقيق الشاعر هارون هاشم رشيد). كان أديباً شاعراً بحق، وكان يعمل في (ركن فلسطين) في إذاعة صوت العرب بالقاهرة، وهو الذي أتاح لي إلقاء قصصي عنده في برنامجه أسبوعياً.

وبعد أن تجمَّع لدي عدد من هذه القصص، رأى الدكتور السوافيري أن نجمعها ونطبعها في كتاب، بوصفها إحدى البواكير لأدب قصصي فلسطيني من وحي النكبة، والحياة الفلسطينية في بلادنا، قبلها وعلى أثرها. وقد طبع كتابي القصصي الأول بعنوان (أشرقت الشمس) في دار ممفيس للطباعة والنشر بالقاهرة عام 1961.

ممن شجعني على الكتابة القصصية والمسرحية أيضاً آنذاك: الأستاذ الكبير محمود تيمور ـ وكان يلقب بأمير القصة ـ والأستاذ علي أحمد باكثير، والأستاذ عبد الحميد جودة السحار. وقد كتب بعضهم نقداً، أو عرضاً لبعض قصصي. أقول الحق لم أكن أصدق ما يجري، إذ كنت أتهيب هؤلاء الكتاب العظام، في الوقت الذي أحس بأنني لم أكمل تعليمي، وأن تحصيلي الضئيل هذا ـ الصف السابع الابتدائي ـ قد لا يعني شيئاً، لكن يبدو أن التعليم، في تلك الأيام، إضافة إلى مطالعاتي وقراءاتي مكنني من إنتاج ما أنتجت، هذا الإنتاج الذي أعود لقراءته اليوم فيأخذني العجب، فلا أكاد أصدق أنني كتبت هذا من دون أن أتتلمذ على أحد في مضمار الفن القصصي على وجه الخصوص، ومع ذلك فهذه الكتابات اتسمت بالجودة والإقناع، سليمة من الأخطاء اللغوية والنحوية، قوية السبك متينة العبارة ـ وهذه أقوال بعضهم ـ إلى درجة لا أكاد أصدقها أنا نفسي اليوم.

س 3: عملت في أكثر من مجال إعلامي خلال حياتك وكنت نشيطاً على أصعدة عدة، هل تحدثنا عن ذلك..؟

ج 3: الحديث في هذا الشأن ذو شجون، حديث طويل على مدى عقود طويلة، ما أحسب أن حيِّزاً محدوداً كهذا يسمح بالخوض فيه لإيفائه حقه. ولكن حسبي أن أقول إنها كانت مجالات ومواقع عديدة. كنت دائماً أتمثل في ذهني وقلبي قضيتي الفلسطينية، والدفاع عنها بالقلم، بعد أن تعذر الدفاع بالبندقية في بلاد الغربة. وقد واجهني كثير من الصعاب والمشاق، بيد أن عزمي لم يفتر قط، وحماستي لم تضعف مع الزمن، بل لعله ازداد توقداً كلما ازدادت الصعاب وما أكثرها في حياة الفلسطيني المغترب، حتى لو توفرت له سبل حياة كريمة في بلاد كسوريا الحبيبة، الصعاب والمتاعب والعقبات تواجهه أنى وجد وحيثما ارتحل.

س 4: هل تعتقد أن تجربتك الأدبية أصبحت أغنى من خلال علاقاتك مع كبار الأدباء في مصر، وهل تحدثنا عن علاقاتك ببعضهم..؟

ج 4: بلى, كانت علاقتي بأولئك الكبار من الأدباء هي الأساس، أو لنقل إنها كانت من المقومات الأساسية، بالغة الأهمية في مرحلة التكوُّن التي أسلفت الإشارة إليها. كانت علاقتي بأدباء مصر قوية، وجميلة وغنية، حافلة بكل ما هو قيِّم وجميل. وبهذه المناسبة لابد لي من الاعتراف بأن أولئك الأدباء كانوا دائماً على قدر من اللباقة والكياسة والتشجيع لي على مواصلة الكتابة. كانوا يطرون ما أكتب، عن قناعة أو لمجرد التشجيع، لا أدري، إلا أنه، في الواقع كان لهم الدور الأكبر في الأخذ بيدي، وهو فضل لا أستطيع أن أنكره، وأكبر الفضل كان للدكتور كامل السوافيري، وهو قد حصل على الدكتواره في تلك الأيام بعد تعرفي إليه ببضع سنين. وكان هو نفسه على علاقة بمعظم أدباء مصر في ذلك الحين.

أذكر أنه طلب إليَّ أن أساعده على الحضور إلى دمشق التي أحبها وعشقها عن بعد من خلال تاريخها وأدبها، لكن، ولسوء الحظ، ما كدت أفعل، حتى أتاني نعيه قبل أن يحقق أمنيته الغالية التي حلم بها طويلاً.

س 5: كيف تقيم علاقتك بأولادك وعائلتك بالنظر إلى اختلاف الأجيال والتفكير؟!

ج 5: هي علاقة عادية وطبيعية، أحبهم ويحبونني كأي من الآباء والأبناء. أما مسألة اختلاف التفكير باختلاف السن، فهذه حقيقة واقعة، لكنها من طبيعة الأشياء ولا غرابة فيها؛ فلكل جيل اهتماماته ولكل جيل تطلعاته ورؤاه. والحياة نفسها ومعطياتها تتغير من جيل لجيل. الحياة والأحداث ليست ثابتة على حال؛ فهي دائمة التغير. لكن ليس هنا مجال البحث في مسألة التحول إلى الأحسن أم إلى غير ذلك في هذا الزمن العجيب. كذلك فإن الرؤية نفسها بين جيل وجيل تختلف أيضاً في التقييم.

س 6: ما هي أكثر الأشياء التي تشغل وقتك غير الكتابة في الوقت الحالي؟!

ج 6: تشغلني الأحداث الجارية في الوطن العربي عامة، وسوريا وفلسطين خاصة. سوريا بلدنا كما هي فلسطين، والبلدان لهما في القلب والروح المكانة نفسها، وإن كان الحنين إلى بيوتنا ومرابعنا هناك هو الحالة الخاصة التي

لا سبيل إلى تجاهلها أو الخلاص منها. ما يجري هناك من اعتداءات متواصلة لا تنقطع على شعبنا من قبل الغاصبين، وما يجري على صعيد القضية الفلسطينية من الناحية السياسية، والقضايا العربية وسوريا خاصة، ما يدبر من مؤامرات ومن خطط إجرامية لها أهدافها وأبعادها بعيدة المدى ذات الأثر ليس على الأجيال الراهنة المعاصرة وحدها، وإنما على مستقبل أبنائنا وأحفادنا كذلك. من ثم أراني دائم التفكير في هذا كله، ولا أرى مخرجاً حقيقياً، يصل بنا إلى ما نصبو إليه في دنيانا، وهو مقدس لآخرتنا، سوى المقاومة والنضال إلى أن يتحقق النصر بإذن الله. ويقيني أنه بات قريباً، ذلك أن المتغيرات الجارية القائمة على قدم وساق ـ سواء على مستوى المنطقة والإقليم أو المستوى العالمي والدولي ـ هذه كلها تبشر بأن التحرير والعودة أصبحا من الممكنات، بعد أن جاء وقت بدت فيه هذه أقرب إلى المستحيلات.. نصرنا أصبح في حيِّز الممكن، وعودتنا محققة.. وهزيمة العدو آتية لا ريب فيها، ربما في وقت أقرب مما يتصور الكثيرون. المعطيات القائمة والمستجدة بتسارع ملحوظ كلها مقدمات تنبئ بذلك.

إضافة لما ذكرت أمضي بعض وقتي في اتحاد الكتاب العرب بوصفي (عضو لجنة التزكية، وعضو هيئة التحرير في مجلة الموقف الأدبي حتى وقت قريب)، وبعض من وقتي بين أصدقائي في الصحف والمجلات، لاسيما عند حاجتي، أعمد إلى تقديم نص قصصي أو عمل أدبي، أو مقال سياسي أو نقدي لهذه الجهة أو تلك من الصحف والتلفزيون والإذاعة.

هذا بالإضافة إلى متابعة بعض أعمالي البعيدة عن المجال الكتابي في مكتبي الخاص.

وقد تقتضيني الدقة أن أشير إلى حضوري بعض الأمسيات الأدبية، أو تقديمي كمحاضر أو قاص أو متحدث في مركز ثقافي ما، أو أحد الفروع لاتحاد الكتاب العرب أو الكتاب الفلسطينيين أو السفر مع وفد لمؤتمر أدبي في بلد ما، وما إلى ذلك من نشاط ثقافي.

س 7: ما هي آخر إصداراتك التي تعمل عليها الآن..؟

ج 7: آخر هذه الإصدارات كتاب سياسي بعنوان (محرقة غزة ونهاية الأسطورة)، ورواية بعنوان (لقاء مع ملك الموت). وكتاب بعنوان (أوراقي وأقلامهم)؛ أما الكتب التي أصبحت جاهزة لدي الآن للطباعة، فهي:

1 ـ رواية (أيام الرحيل) وهي الجزء الثاني بعد (قبل الرحيل)، تتحدث عن مرحلة الخروج منذ غادرنا بلدتنا (يبنا)، حتى وصولنا إلى دمشق عام 1948، وهي بقدر ما هي تجربتي الخاصة، إلا أنها تتحدث عما وقع لمعظم أبناء الشعب الفلسطيني في تلك الحقبة البائسة، دور اليهود، والدور العربي بشقيه المقاوم والمتخاذل، فضلاً عن المخططات والمؤامرات الدولية التي أسهمت كلها فيما حدث.

2 ـ مجموعة قصصية بعنوان (حالات ملتبسة) هي عبارة عن قصص ناقدة ساخرة اجتماعياً

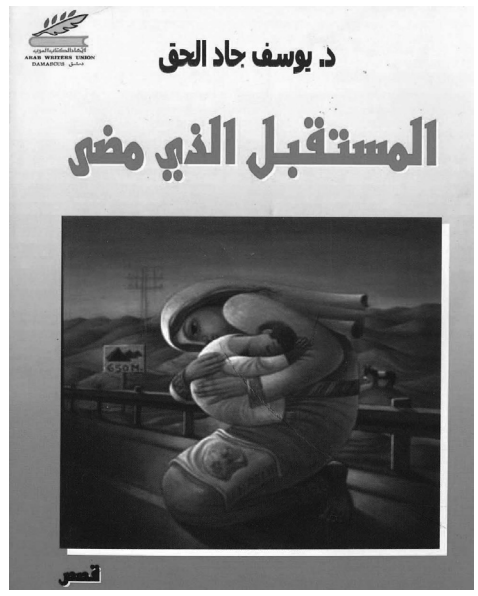

وسياسياً.

3 ـ رؤى، وهي كتابات نقدية وأدبية من الخواطر والزوايا المنشورة في الصحف والمجلات.. الخ.

4 ـ حرية الاعتقاد: بحث في مسألة حرية الاعتقاد وموقف الإسلام منها.

5 ـ رواية بعنوان (بوذا العصري) تتحدث عن إنسان معاصر فكر في أن يقلد بوذا إثر مشاهدته فيلماً عن بوذا، وكيف أن هذا ترك الإمارة والعيش الرغيد كولي للعهد في مملكة أبيه، لكي يذهب في الفلاة بحثاً عن الحقيقة، وعن الوسيلة لهداية البشر..! إنسان معاصر قرر أن يصنع ما صنع بوذا، وهنا نرى المفارقات التي تحيط بالمسألة، وما يواجهه من البشر المعاصرين بمفاهيمهم وقيمهم وشرورهم وأنانياتهم ومصالحهم الخاصة.. إلى آخر ما هنالك، إلى أن ييأس من هدايتهم، فيعود أدراجه من حيث أتى مرغماً.. رواية ناقدة للبشرية المعاصرة، بأسلوب ساخر فكه، يتضمن النقد للمجتمعات البشرية المعاصرة؛ إضافة إلى أفكار فلسفية حول الكون والإنسان والحياة في الماضي وفيما هو راهن.

6 ـ رواية طريفة عجيبة بعنوان (صديقتي الجنية) أترك الحديث عن هذه الرواية إلى حين نشرها.

ولكن مما يؤسف له أن عملية النشر في هذه الأيام عسيرة جداً ـ وربما كما كانت دائماً في بلادنا العربية ـ فالمؤسسات كاتحاد الكتاب ووزارة الثقافة تقنن ولا تنشر إلا النزر اليسير بصعوبة بالغة. أما دور النشر فهي شركات تجارية هدفها الربح وحسب. والكتب في هذه الأيام قلما يجني هؤلاء من ورائها ربحاً. من ثم فإن النشر عن طريق هذه المؤسسات الخاصة من الصعوبة بمكان؛ اللهم إلا إذا كانت ذات طابع خاص، كتعليم الطبخ أو المراسلات الغرامية أو كتب الجنس وما إلى ذلك..

س 8: لو خيرت أن تعطي بعض النصائح للجيل الشاب من الكتاب، فماذا تقول لهم..؟

ج 8: تقول يا عزيزي (لو خيرت) فأنا في الواقع لو أنني خيرت لاخترت ألا أعطي نصيحة لأحد، فلقد ثبت بالتجربة الحياتية لي، وربما لغيري، أن نصائح الكبار لمن دونهم سناً قلما تجدي، إن لم تؤدِّ إلى عكسها. الشاب عادة يعتريه الغرور، ويحسب أنه هو الذي سيغير السائد والمتعارف عليه.. بل ربما خطر له أنه قادر على تغيير العالم بأسره، من ثم فهو لن يقبل نصيحة تأتيه من أحد.. التجربة هي التي تعلم الإنسان، سواء كان كاتباً أو إنساناً عادياً من عامة الناس. ولولا ذلك لرأينا صورة العالم على غير ما هي عليه، فما من جيل إلا وقد عنَّى نفسه بإسداء النصح لمن يليه، سواء كان هؤلاء من الأبناء أو من الغرباء، ومع ذلك لم يأخذ أحد بنصح أحد، اللهم إلا في ما ندر، لكيلا يكون كلامنا من قبيل التعميم، فالتعميم في حد ذاته ظلم للعموم.

بلى سوف تعلمهم الأيام والأحداث التي سوف يعيشونها ويعاصرونها.

(ستبدي لك الأيام ما كان خافياً
ويأتيك بالأنباء من لم تزوِّد)

عمر بن عبد العزيز والشعراء

خالد بدور

روى بن الكلبيّ أنه لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، حتى قدم عدي بن أرطأه عليه، وكان منه بمكانةٍ، فتعرض له جرير قال:

يا أيها الرجل المزجي مطيته
هذا زمانك إني قد خلا زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيهُ
إني لدى الباب كالمشدود في قرن

قال نعم يا أبا عبد الله، فلما دخل على عمر قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألسنتهم مسمومةٌ، وسهامهم صائبة، فقال عمر: ما لي وللشعراء، فقال عدي: يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) مدح فأعطى، وفيه أسوةٌ لكل مسلم، قال صدقت، فمن بالباب منهم، قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي، قال: لا قرب الله قرابته ولا حياة وجهه، أليس هو القائل؟

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي
شممت الذي ما بين عينيك والفم
وليت ظهوري كان ريقك كله
وليت حنوطي من مشابك والدم
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي
هنالك أو في جنةٍ أو جهـنم

وليته عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ثم يعمل عملاً صالحاً، والله لا يدخل علي أبداً، فمن بالباب غيره؟

قال: جميل بن معمر العذري، قال: أليس هو القائل؟

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمت
يوافي لدى الموت ضريحي ضريحها
أظل نهاري لا أراها ونلتقي
مع الليل روحي في المنام بروحها

والله لا يدخل علي أبداً. فمن بالباب غيره؟ قال: كثير عزة، قال: أليس من قوله:

رهبان مدين والذين عرفتهم
يبكون من حذر الفراق قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها
خروا لـ»عزة» ركعاً وسجودا

والله لا دخل علي أبداً، فمن بالباب غيره، قال: الأخطل التغلبي قال: أليس هو القائل:

ولست بصائمٍ رمضان عمري
ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عياً بكوراً
إلى أطلال مكة بالنجـاح
ولست بقائم كالعبد يدعو
قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً
وأسجد عند منبلج الصباح

أبعده الله، والله لا دخل علي أبداً ولا وطئ لي بساطاً، وهو كافر، فمن بالباب غيره؟ قال: جرير، قال: أليس هو القائل؟

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان ولابد فهذا إذن، قال عدي: فخرجت وأدخلت جريراً. فلما مثل بين يديه، أنشده من قصيدة:

إن الخلافة جاءته على قدرٍ
كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا
بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال والله يا جرير قد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً. فعشرةٌ أخذها ابني، وعشرةٌ أخذتها أمه، ولك العشرة الباقية.

عبدالإله بلقزيز يقدم رؤية فاحصة في خصوصية الخطاب العربي

مأمون شحادة / فلسطين

خطابات عربية، وآمال إصلاحية تسودها لغة الحيرة والتعجب والانفعال والتضخيم، وفق ثنائية تفتقر إلى عنصر تركيبي يوافق بين النظرية والتطبيق لصوغ خطاب عربي معاصر، يحاكي الأسس النقدية لثلاثية النهضة (الماضي والحاضر والمستقبل)، من أجل بناء واقع عربي يلائم خصوصية المشهد العربي بعيداً عن الهيام والتماهي.

ما يهمنا في هذا الإطار «أن نتناول بالتحليل والنقد الخطاب السياسي العربي المعاصر، لا من وجهة تطبيقه، ولكن من وجهة تعبيره النظري ومصادره الإشكالية، من خلال تحليله كخطاب أصل، وكسلطة للتفكير الحاضر». هذا ما قاله الكاتب والمفكر العربي عبد الإله بلقزيز في كتابه «إشكالية المرجع وكينونتها في الفكر العربي المعاصر»، الذي اقتضى الخوض في جوهر صفحاته.

متطلبات الخطاب العربي

المتجول في متن نصوص الكتاب يجد أن الخطاب العربي يخضع لهيمنة البعد السياسي؛ فالفكرة السياسية تشكل الإطار النظري العام الذي يعمل من خلاله الفكر العربي المعاصر، ويتحرك في دائرته، وذلك أياً كانت الموضوعات التي تناولها، سواء تعلق الأمر بالاستعمار أو بالتحرر، بالتجزئة أم بالوحدة، بالظلم أم بالعدل، بالاستبداد أم بالديمقراطية، بالتقدم أم بالتخلف؛ فكل ذلك يرجع إلى طبيعة الظرفية التاريخية بما معناه ظرفية التدخل الأجنبي.

من جراء ذلك أصبحت مفاهيم النخب الفكرية تعتمد على مفاهيم الترقي والتنظيمات والقوانين والدستور والديمقراطية والوطن، في حين أنها قبل ذلك كانت تعتمد على مفاهيم الفكر السياسي الشرعي والاجتماعي، كمفاهيم العمران والخلافة والسياسة الشرعية والشورى وغيرها، ما يمثل شكلاً من أشكال الانقطاع الحاصل في الفكر العربي المنقسم إلى شطرين تاريخياً.

كل ذلك يشبه الانقطاع الحاد في مسار الفكر العربي، وهو الانقطاع الذي بات محكوماً على الفكر العربي منه بألا يستمر مرتكزاً إلى القواعد ذاتها التي كانت تنظم عمله، ويتمثل ببدايات التدخل الأجنبي، وانتقال المثقف العربي إلى اكتشاف أوروبا في موطنها بلا وسائط، والاحتكاك بمنظوماتها، فمن المفارقة أن الأوروبي قام بمعاملة العربي من خلال (الاستشراق)، وأما العربي فأخذ الشكل من دون الجوهر متناسياً (الغربنة)، فمن الصعب تطبيق شيء يتناسب مع ظروفه الخاصة على مجتمع آخر مختلف الظروف عن المجتمع الأول، ما أدى إلى تمازج المثقف العربي بالفكر الغربي.

من خلال هذا التمازج بتنوعه المراجعي، فأياً كانت وجهتنا لقراءة نصوص مثقفي النهضة، الذين دافعوا عن الأنموذج الحضاري الأوروبي أو الذين هاجموه واستنكروه، وكائنة ما كانت المواقف الاجتماعية والسياسية التي نشأت عن أطروحاتهم، فإننا نجد أنفسنا أمام خطاب واحد يدور حول قضية واحدة.

ليست القضية هذه سوى قضية انحطاط (نا) وتأخر (نا) قياساً إلى (الآخر)؛ أي إلى أوروبا التي أيقظت في الفكر العربي حس المقارنة التاريخية، وليس الخطاب ذاك سوى خطاب إصلاح لأحوال(نا)، وفي هذا الإصلاح «تنافس المتنافسون» واختلفوا في تحديد مصادره وتعيين رهانه وأنموذجه المرجعي: أوروبا أو الإسلام، فظهرت مكونات الخطاب السياسي النهضوي متناقضة ما بين رفض النموذج الأوروبي ممثلاً بالمثقف السلفي الذي نادى بالحضارة العربية الإسلامية الشامخة بالعودة إلى السلف الصالح، وبين قبول الأنموذج الأوروبـي ممثلاً بالمثقف الليبرالي الذي أخذ بأسباب التمدن الأوروبي.

أخذ الفكر السياسي العربي منذ نشأته، قضيتين مركزيتين هما: الاستبداد والاستعمار، فالذين انطلقوا من قضية الاستبداد استعملوا لغة التحرر على طريقة الفكر السياسي الأوروبـي من خلال مفاهيم الحرية والوطن والأمة والدستور وغيرها، فيما استعمل الذين انطلقوا من قضية الاستعمار لغة الاستمرار والتواصل من خلال مفاهيم، كالعصبية والوحدة، رافضين الإذعان لنظام (الآخر) الفكري والانقطاع التاريخي (العربي الإسلامي(.

من ذلك يتبين أن الانطلاقات النهضوية حملت في جعبتها وجهات نظر، تحولت إلى فكر مرجعي بني على أساسه الخطاب العربي المعاصر، فكل تيار له نظرته، التيار الليبرالي له مرجعيته، والسلفي له مرجعيته المناقضة للأول، ليتضح من ذلك أن معظم المثقفين الليبراليين العرب، نظروا إلى الظاهرة الاستعمارية - كتحد أولاً ثم كواقع ثانياً - بصفتها موضوعات ذات أولية حاسمة للتفكير؛ حيث كان التفكير الليبرالي العربي مشغولاً بالدفاع عن مبادئ الحرية ضد الاستبداد والعقل والعلم ضد الدين والدولة الوطنية ضد السلطنة من خلال الاهتمام بمشكلة السلطة (بوعي أو غير وعي) مع بعض أهداف الأجنبي في تلك الفترة حسب قاعدة تفكيك الذات، ما يدل على أن خطابهم، خطاب نضال داخلي اجتماعي - سياسي في سبيل تحصيل الحرية وضد استبداد السلطان، فيما أخذ المثقفون الإسلاميون (الأصوليون) ينظرون باهتمام إلى موضوع الخطر الاستعماري، ويغضون الطرف عن مساوئ السلطنة العثمانية وما يرتبط بنظامها السياسي، فلم يكونوا معنيين بمشكلة السلطة، وإنما كانوا معنيين بمشكلة الكيان الاجتماعي والسياسي، ولم يكن انعطافهم نحو قضية الهوية إلا الممر الفكري الإجباري لتعبئة المجتمع والنخبة المثقفة، لمواجهة أخطار الأجنبي، ما يدل على أن خطابهم خطاب نضال وطني في سبيل تحصيل استقلال الأرض والإرادة الوطنية ضد الاحتلال المستعمر.

إن تلك الثنائية المتعارضة في الميل نحو المنظومات المختلفة لا يفسر أن هناك علاقة طلاق بين الأنموذجين الثقافيين – العربيين، إنما يدل على أن الإشكالية هي واحدة لهما معاً- وهي إشكالية صاغها (الآخر) بهذا الشكل أو ذاك، ورسم إطار تناولها للفكر العربي المعاصر، ولكن التعبير عنها لم يكن واحداً؛ بل كان مختلفاً وغالباً ما أنتج لغتين وصيغتين، تقليدية وعصرية، لأسباب اجتماعية – ثقافية تتعلق بطبيعة التكوين الثقافي للنخب الفكرية.

يتبين من ذلك أنها إشكالية نهضة تلتمس السبل إلى الإصلاح بوصفها إشكالية الأنا والآخر، الذات والتاريخ، فقد أنتجت لنا مقاومة ذلك الاحتلال في التوازن بين الجانبين مظهرين أساسيين: مظهر مقاطعة سلفية لـ(الآخر) أرادت نفسها كلية فكانت جزئية. وتماهياً مع (الآخر) توخى لنفسه الشعور بالقوة والندية والخروج من دائرة الاختلال، دائرة الدونية.

إن الخطاب النهضوي الذي تشوبه الكثير من التناقضات بين الجانبين، الليبرالي والسلفي، يتمحور من خلال الصيغة الفكرية للجانب الليبرالي النهضوي الذي أخذها عن الموقف السياسي السلبي من العثمانيين، موقف المعارضة من نظامهم السياسي ومن شرعية حكمهم، عاشوه - ايديولوجياً وفكرياً- كموقف سلبي من الإسلام، بحيث أصبح الإسلام يعني لهم الاستبداد والانحطاط.

هكذا جرت عملية خلط غير شرعية تماماً بين المعتقد والحضارة والثقافة وبين السياسة التي كانت كفيلة بإنتاج موقف عدمي من التراث العربي – الإسلامي. وكما سقط الليبراليون في لعبة المماثلة بين الإسلام والدولة العثمانية، سقط أيضاً في المماثلة بين الإسلام والكنيسة. وكانت المماثلة عنده واحداً من عناصر موقفه السلبي من الإسلام، أما على صعيد الصيغة الفكرية النهضوية السلفية، أصبح رفض المنظومة الفكرية الغربية ومبادئها التنويرية يرادف رفض الاستعمار (هذا الذي أدخل تلك المنظومة إلى بلاد المسلمين للإجهاز على دينهم وثقافتهم ولغتهم) كما ظل السلفي يردد.

يتضح أن السياسة في هذا الموقف أصبحت تطابق الفكر، ولم يعد المثقف المغلوب قادراً على أن يرى الانفتاح الثقافي إلا شكلاً لاستباحة الذات، والهوية والثقافة والحضارة، واعتراف لـ(الآخر) بكونية ثقافته، بما في ذلك من أسباب إضعاف للمقاومة الثقافية والسياسية للتسلط الأجنبي.

والذي يدل على أن السلفي لم يُقبِل على الأخذ من تلك المنظومة بصورة حرة طوعية، ولم يقبلها لأسباب محض معرفية، وإنما قبلها بظرفية سياسية هي ظرفية الضغط، وإنه لم يكن يفهم دائماً لجوءه إلى تلك المنظومة على أنه لجوء إلى فكر (الآخر)، بل على أنه لجوء إلى أفكار أخذتها أوروبا من الإسلام وهي أفكار إسلامية صرفة، ليدل على أن المثقف السلفي لم يكن قادراً على فك الارتباط - في ذهنه - بين الاستعمار والفكر الغربي.

إن حدود الخطاب العربي النهضوي ظل متناقضاً في ذاتيته الداخلية والخارجية، بالمحتوى المعرفي لليبرالي، والتواصل مع الماضي للسلفي؛ فإن حدود الخطاب النهضوي الليبرالي ترسمه العلاقة التي كان يفتحها مع الثقافة الغربية المعاصرة، ونعني بها: التأويل، كونها غير منسجمة الكيان النظري والأطر المرجعية المعتمدة، محكومة بالتناقض، وهي تستند إلى النظام الفكري الليبرالي الغربي، الذي عرف حلقات من التطور معتمدة ومتباينة.

فالمثقفون الليبراليون العرب لم يتعرفوا – في نهاية القرن الماضي – إلى ليبرالية واحدة ذات ملامح متميزة تعكس ملامح عصرها، وتخلق بالتالي التجانس في وعيهم، بل تعرفوا إلى ليبرالية ورثت روح الفلسفة الغربية الحديثة، وروح الثورة الفرنسية، وروح الردة على الثورة، وروح النخبوية المعادية للديمقراطية والاشتراكية. أما السلفية التي أخذت كتاباتها تشكل حدوداً نظرية رافضة وممانعة للاعتراف بانتصار فكرة الاجنبي على العالم وأرجحيتها العلمية، وذلك من خلال الانكفاء إلى المدونة الإسلامية، غير أن تلك الممانعة وهذا الانكفاء لم يستمرا زمناً طويلاً، اذ سرعان ما سينفتح خطاب السلفي لاختراقات فكرية معاصرة، لتتعدل لهجته في الآخر؛ أي أن خطابه سيتوقف عن إنتاج معاني العداء ومشاعره لثقافة (الآخر)، وسيتوقف عن التمترس في الذات، ليمارس لوناً من ألوان الانفتاح على العصر، والدليل على ذلك مفاهيم الأمة والوطن والدستور وغير ذلك من المفاهيم التي تزخر بها الكتابة السلفية التي تنتمي إلى الفكر السياسي الاوروبي الحديث.

إن هذا الصراع العنيف الذي ما فتئ الوعي العربي يعيشه منذ دخل الغرب مسرحه تاريخياً بين أصالة ومعاصرة، هوية وتقدم، إسلام وحداثة، حولت هذا الوعي حقاً إلى وعي مشقوق إلى نصفين يتصف بالصراع المزدوج، بما معناه هو صراع من النوع غير المحفز على التنافس والإنتاج والاختلاف الإيجابي.

إذن، وبحسب ما طرحه بلقزيز، نحتاج إلى موقف تركيبي أو مصالحة مؤقتة تمثيلاً لنزعة المصالحة التركيبية بين أطراف العناصر المتضادة، وهذا ما مثله الأفغاني ومحمد عبده من موقف تركيبي بين تلك الأطراف التي تكمن أهميتها في الذات لأنها تسوية فكرية، أتاحت للفكر العربي أن يتطور ويغتني لفترة من دون أن يلجم حركته ذلك التناقض بين مرجعياته، كما تكمن أيضاً في أنها أتاحت للفكر العربي فرصة تأسيس قواعد للحوار بين مكوناته، واستساغة معنى الحرية الفكرية؛ بل معنى الثقافة كإبداع وانتاج؛ حيث أن الأفغاني قدم رؤيته حول أطروحتين: التعصب للدين، ومنه موقفه الداعي إلى الوحدة الإسلامية، والتعصب للجنس، ومنه اعترافه بوجود أمة عربية تجمعها رابطة قومية متميزة، فمن خلال تلك الأطروحتين أحس الأفغاني بضغط الحالة الاستعمارية التي تستدعي ردوداً ممكنة وواقعية تلائم الواقع المعاش في الملائمة بين الازدواجية في الفكر العربي.

غير أن هذه المصالحة المرجعية لم تعمر طويلاً، إذ ما لبثت أن عاشت مأزقاً حاداً بعد محمد عبده من خلال عودة انقسام الخطاب النهضوي والوعي النهضوي وانشطارهما إلى تيارين متضادين: تيار سلفي عاش على أفكار الأصالة الإسلامية لمحمد عبده، وقد مثله رشيد رضا لينبثق عنه بعد ذلك جماعة الأخوان المسلمين بزعامة حسن البنا، وتيار حداثي عاش على الموضوعات الليبرالية لمحمد عبده، ومثله لطفي السيد مخرجاً الليبرالية مثل طه حسين، ليفتح الباب أمام مرحلة الصدام طويل الأمد بين أفكار الحداثة وأفكار الأصالة، بين التقدم وفكرة الهوية، صدام كان يرشحه لمزيد من العنف والتأجج للطابع السياسي المؤسسي الصريح الذي بدأت تتخذه تلك الأفكار، مؤدياً إلى ثمرة اخفاق الحركة الاصلاحية، مطيحا بإمكانيات الحوار بين مكونات الساحة الفكرية العربية، وتكريس قيم النبذ، والإنكار، والتخوين، والاتهام، والاستبداد بالرأي بدل قيم الحرية، والاختلاف، والاحترام المتبادل.

إن الخطاب العربي كما وصفه بلقزيز، خطاب رد فعل يتعلق بعطب بنيوي تكويني في هذا الخطاب من خلال ظرفية التدخل الاستعماري في العالم العربي في القرن الماضي، حيث كانت ردة الفعل ممارسة غير حرة، وغير اختيارية جاعلاً من الخطاب ذا طبيعة تطرفية (يميناً أو يساراً، انغلاقاً أو انفتاحاً)، والذي يدل على أنه خطاب متناقض غير متماسك البنى النظرية، وغير منسجم في اطار المرجعية، ليتبين أنه خطاب معركة سياسية؛ اذ ارتبط منذ البداية بقضية سياسية أتى الغرب يطرحها في قلب الفضاء التاريخي الإسلامي (العثماني) هي قضية التأخر: تأخر النظام السياسي (الأطروحة التي قذفت في وجه السلطنة واستبدادها)، وقضية الاستعمار التي شغلت قطاعاً عريضاً من المثقفين النهضويين، فإن القضية تظل هي هي: ارتهان الخطاب ذاك بالمسألة السياسية، ليتضح أنه خطاب إيديولوجي سجالي الطباع بمواصفات لا تاريخية، لا يعيش تاريخه في ظل ذلك التجاذب والتوتر، الذي يتحكم فيه بين مرجعيتين: فهو إما خطاب يلتمس إجابات

عن حاضره من الماضي (كما في حالة السلفي)، أو ما يلمسها له من المستقبل لطموح نهضوي على الطريقة الأوروبية (كما في الليبرالي)، وهو يحيا هذه الثنائية خارج تاريخه الحاضر، الذي جعل الخطاب العربي رهناً بأحكامها.

مما ذكر أعلاه، يضع كاتبنا عبد الإله بلقزيز خلاصة مفادها: إن الفكر العربي يفتقد إلى تفكيك الماضي والحاضر لنقده ومعالجته قبل الانغمار في تيارات غربية، تربتها تختلف عن تربة المجتمع العربي، أو ماضوية أفكارها لا تلائم الحياة الحالية؛ حيث إن الفكر العربي يعتمد على العاطفة قبل العقل، والخيال قبل الواقع (الواقع العربي وتكويناته التاريخية والاجتماعية)، ومن أجل ذلك فإنه يحتاج إلى تحطيم الأطواق للدخول في فترة جديدة، وتاريخ جديد، لتشكيل خطاب عربي جديد له سماته وركائزه ومكانته.

مرجعية الخطاب العربي والتأويل

اختلافات، وتشابهات، وتناقضات، وتصارعات، هي جملة أفكار لازمت الفكر العربي في نهضته ما بين مشرقه ومغربه، وفق كلمات صيغت على شكل خطاب مليء بالمعنويات، ومفتقر إلى الماديات.

ليتضح «أن الفكر العربي يتصف بتعميم الإشكاليات من الخاص إلى العام، ويعيش في أزمة دائمة مزمنة، ومشاكل تاريخية ملازمة لتاريخ الأمة العربية، وإلغاء تحديد مشاكل الحاضر المحدود ضمن حدود مكانية وزمانية».

من خلال ذلك يرى عبد الإله بلقزيز: أن الاسلام والعروبة، والدين والدولة، والأصالة والمعاصرة، إنما تعني إشكاليات وقعت في مشرق الوطن العربي من دون مغربه، مما يعني أنها إشكاليات محلية وخصوصية، وخصوصاً في سوريا الكبرى؛ حيث تشكلت تلك الأزواج كردة فعل ضد الحكم العثماني وسياسة التتريك، للحفاظ على الكيان العربي «لغة وتراثاً»، وكردة فعل على الاضطهاد الديني للأقليات غير المسلمة باسم الاسلام، فيما تشكلت الأخيرة كـ«دعوة» إلى الإصلاح لمحاربة الطرقية، والصوفية، والشعوذة.

فتلك الإشكاليات لم يعشها المغرب العربي، ولكن ردة فعله ضد الاتراك كانت من نوع آخر، وذلك بإدخال الحركة الوهابية إلى المعترك المغربي للتعبير عن حاجة مزدوجة داخلية خارجية، تختلف عن الازدواجية في المشرق العربي.

تمثلت الحاجة الداخلية في اعتبار الوهابية سلاحا ايديولوجياً لمواجهة الحركات الطرقية في المغرب، أما الحاجة السياسية الخارجية، فقد تمثلت في مقاومة الأتـراك على الحدود الشرقية للمغرب، فإذا كانت الوهابية في موطنها الحجازي شكلاً من أشكال التمرد على العثمانيين، فلِمَ لا تكون الشيء ذاته في المغرب الذي استمر يتوجس من التمدد التركي على أراضيه؟!

يتبين من ذلك أن الفكر المغربي مبني على مصادر داخلية: الرد على الطرقية وسلطاتها السياسية اللامركزية المهددة للمخزون، ومصادر خارجية: الرد على الحملة الأوربية باستعارة بعض الأنظمة والأفكار الحديثة الوافدة من أوروبا نفسها.

ثمة أسباب عديدة تفسر غياب ظاهرة الأزواج المفهومية المتعارضة في الخطاب الفكري الإصلاحي في المغرب، والميل الذي يبديه نحو بناء علاقة تعايش بين المرجعيات؛ فمنها السياسية، والاجتماعية، والفكرية. فمن ضمن الأسباب السياسية وعلى رأسها العامل الاستعماري، فالحركة الوطنية المغربية التي اتصفت في صيغتها المعاصرة في ثلاثينات هذا القرن، تشكلت كاستجابة للتحدي الاستعماري، وكحركة سياسية إصلاحية، اتخذت من نظام الحماية الفرنسي القائم اطاراً للعمل الوطني السياسي.

أما الأسباب الاجتماعية فمن أهمها عدم وجود تعددية دينية في المغرب. فضلاً عن أن المغاربة محكومون في إسلامهم بالمرجع المذهبي المالكي. فإنهم لم يعرفوا مشكلة الأقليات غير الإسلامية، كما هو الحال في المشرق العربي.

ما يعني أنه لم تكن قد وجدت بيئة اجتماعية (ودينية) تدفع نحو تشكل لإيديولوجيات عروبية في مواجهة ايديولوجيات إسلامية كما حصل في مصر والشام .

أما على الجانب الفكري، فقد درج الإصلاحيون المغاربة - والسلفيون منهم بخاصة- على قراءة أفكار الاصلاحيين في المشرق بعد تجريدها من محتواها وخلفياتها الايديولوجية، وتوظيفها. أي أنهم اعتادوا التعامل معها بصفتها أفكاراً من دون الانتباه إلى ما يؤسسها من اعتبارات ايديولوجية، ومن دون رغبة منهم في الانخراط في نزاعات الإصلاحيين المشارقة، بوصف معيار أخذهم بها كان هو المصلحة، لتكييف الدعوة الإصلاحية مع الحاجات وقراءتها لا في ضوء الاستقطاب الإيديولوجي المشرقي، وبالانتساب إلى أحد عناصره، وإنما في ضوء الواقع المغربي.

يتضح أن شـروط إنتاج الخطاب الإصلاحي في المغرب كانت متميزة عن شروط إنتاجية المشرق، وهذا قاد إلى اختلاف تعاطي الإصلاحيين المغاربة مع قضايا كانت- لأسباب سياسية تاريخية- حساسة في المشرق. أما الحقيقة التي تظل قائمة في مطلق الأحوال فتدل على أن الخطاب النهضوي الإصلاحي العربي يظل هو هو-في المشرق كما هو في المغرب- بإشكالياته ومرتكزاته النظرية، ونظامه المفهومي، رغم اختلاف شروط إنتاجه هنا أو هناك.

الحديث في هذا الباب ينأى بنا عن المقاربة السوسيولوجية الثقافية إلى المقاربة الابستيمولوجية والاعتراف المتبادل بين أطراف الصراع الفكري للدخول إلى إعادة بناء الوعي بمسألة المرجع بصورة موضوعية غير إيديولوجية، وبصورة سوية غير عصابية، يستطاع من خلالها تجاوز حرب الوعي هذه، وأن يتجه إلى إنتاج معرفة موضوعية بمسألة المرجع، فعن طريق ذلك يستطيع إعادة بناء الوعي العربي من أجل إنتاج ثقافة جديدة تسودها لغة التفاهم والتوافق.

إن الفكر السياسي العربي مدعو إلى بناء علاقة نظرية صحيحة بين الوحدة والاختلاف في مظهرياتها المختلفة: الوحدة القومية، الديمقراطية والاختلاف (في الرأي والتغيير والتنظيم)، العدالة الاجتماعية، الانتماء الوطني غير العصبوي الضيق.

علاقة تقييم التأليف والتركيب بين هذه الحدود، تحتاج إلى اعتراف جمعي، بدلاً من إقامة عوازل الإنكار وعلاقات الإلغاء المتبادل والاتهام والنبذ، في الوقت الذي أصبح الهاجس يـراود القومي، والماركسي، والسلفي والليبرالي ويرافقه بطريقة التفنن للوصول إلى سلطة الدولة، مسبباً الانقلابات، والثورة المسلحة، والإضراب السياسي وغيرها من الأساليب، التي حولت العلم السياسي العربي تدريجياً إلى علم عسكري من دون وعي من المتصارعين. مما جعل المجتمع العربي يتجه إلى الحداثة وفق مفهوم التحديث بالفعل القسري وفق عملية التصارع ما بين قبول الحداثة ورفضها، ما أدى إلى نتيجتين: استثارة مقاومة النقيض، تم فشل التحديث ذاته.

إن تحقيق قطيعة ابستمولوجية هو المدخل نحو تطوير فاعلية الفكر السياسي العربي في المستقبل. ولا سبيل إلى ذلك إلا بإحلال النظرة النقدية (نقد المسبقات) بدل النزاعات الإيمانية البديهية، وإحـلال السببية في معرفة العالم بدل النزعة المطلقية، التي يمارسها الماركسي العربي والقومي العربي والأصولي العربي، والتي لا تأتي بما هو جديد، وإنما هم يعيدون إنتاج بديهيات منحدرة من أصول ومنطلقات عُدت لديهم حقائق لا يجوز الطعن فيها، حيث تحتاج إلى إحداث قطيعة مع النزعة النصية المهيمنة على الخطاب السياسي العربي الحديث، الذي يميل إلى الاستناد إلى نصوص، ومراجع في عملية بناء المعرفة بالواقع العربي، متخذاً شكلاً لإقصاء الواقع والاستعاضة عنه بالنصوص، ما يجعل من الوظيفة الإبداعية متخلفة فكرياً، والعقل إلى عقل قياسي فقهي، فتكون تلك النصوص مستقراً، وليس ممراً لما هو جديد، حيث ان جاذبيتها المغناطيسية تشل العقل المبدع، فيكتفي بترديدها ترديداً، وهذا على الأقل حال مفكرينا العرب.

لقد أغلق إسلاميونا المعاصرون باب الاجتهاد في أمور الحياة المستجدة، ولم يضيفوا أصلاً واحداً إلى أصول السلف. واكتفى الماركسيون بإعادة تصريف مقولات ومفاهيم نشأت في حقل نظري مستجيب إلى حقل تاريخي مطابق. ويبقى أفضل القوميين يعيش في الفكر القومي الأوروبي للقرن التاسع عشر من دون إضافة.

إن الذي يستوجب من ذلك ليس ترك النص، وإنما إعـادة بناء العلاقة به انطلاقاً من مرجع آخر، وهو الواقع، لقراءة النص قراءة واقعية، لا قراءة الواقع قراءة نصية.

إن ظاهرة اللفظية الخطابية الشعاراتية السائدة في الخطاب السياسي العربي المعاصر بما يحويه من مفاهيم ومقولات وشعارات يرددها رجل السياسة العربي، تحمل محتوى إيديولوجياً معيناً، تتجاوز أحياناً المجال الدلالي، وترتفع بالمعنى إلى مستوى القداسة عبر الارتفاع باللفظ إلى مستوى السحر، وهكذا كلما ذهب اللفظ في اكتساب سحريته، زاد معناه تكلساً، وأمعن في قداسة اللفظ، الذي ينبغي إبعاد الفكر العربي عن النظرة الميتافيزيقية من خلال استيعاب النزعة التاريخية وغرسها في التفكير والبعد عن الاستقطاب الحاد الفكري والنظري نحو الأخذ بهذا المرجع أو ذاك الفكر: الإسلامي (التاريخ الماضي) أو الفكر الاوروبي الليبرالي (التاريخ المستقبلي) ما يؤدي إلى الهروب من مرجعه الحقيقي (الحاضر)، بمعنى أنه يفكر خارج تاريخه الفعلي، آخذاً بوصف الواقع لا بتحليله، ولم يعرف من الواقع سوى (فشل الاشتراكية) ونجاح الليبرالية، أو (فشل تطبيق معين للاشتراكية) ونجاح الديمقراطية، أو سقوط الديكتاتورية وصعود الديمقراطية.

أما تحليل سياق التناقض الدولي بين المعسكرين فيما يحويه من الأمور العسكرية والاقتصادية من تنظيم وتوازنات دولية؛ فهذه الأمور لا تدخل في نطاق التفكير السياسي إلاَّ لماماً، مركزاً على ظاهرة الوصف والسرد.

من ذلك يتحتم على المفكر العربي الاهتمام بعقلنة الرؤية، والاستشراف المستقبلي وفق خصوصية عربية مبنية على الوعي ونقد «الواقع والذات والتاريخ»، ومن دون تلك الأشياء لن يتمكن مفكرنا من بناء سقف هذا البيت، بيت الخطاب العربي.

حواجز ثقافية

عياد عيد

الجلاء

لن نـدرك مهما قرأنا من مراجع، ومهما استحضرنا من تاريخ، أهمية الجلاء وقيمته كما أدركها صانعوه أنفسهم، الذين ربما لم يبق منهم أحد على قيد الحياة الآن. لم يصنعوه ترفاً، ولم يضحوا في سبيله بالغالي والنفيس عناداً وتكبراً، بل كان حاجة موضوعية ملحة، رأوا فيها مسألة حياة الشعب أو موته واندثاره وانحلاله في ذات غريبة عنه وعن قيمه، ومنافية لتطلعاته في الحياة.

إننا اليوم ننظر إلى الجلاء كأمر وقع قبل أن نولد، وعلى أنه من طبيعة الأشياء، لكن تلك الأجيال التي عاصرت الاستعمار المباشر، والمجسد أمام أعينها بلا وسائط وبلا ستائر قد لمست بالمحسوس عظمة حرية الشعب واستقلال الوطن وسيادته.

لم تكن الإمكانات المتوافرة آنذاك توحي بأن هذا الهدف ممكن التحقيق، لكن كان لا بد من فعل شيء... أي شيء، ولو كان بسيطاً، لا بل إن الحسبة «العقلانية»، التي كثيراً ما ينصحوننا بها اليوم، ويحاولون تلقيننا إياها (وربما كان ثمة من ينصح بها في ذلك الوقت)، كانت تؤكد على أن جلاء المستعمر عن سوريا هو أمر يصعب جداً تحقيقه، وقد يكون مستحيلاً، وأن ذلك الليل لن ينجلي.

والحسبة «العقلانية» تتضمن تقدير موازين القوى الدولية والإقليمية والمحلية، وتقدير القدرات الذاتية الاقتصادية والسياسية والعسكرية... الخ، ثم تقديرها لدى المستعمر... وبعد ذلك المفاضلة بين هذه القدرات ومن ثم اتخاذ القرار. وهي عملية معقدة ودقيقة وحساسة جداً، ومن يخوض فيها سوف يصيبه أول ما يصيبه وجع في الرأس، هذا إن لم تكن نتيجتها محسومة سلفاً.

الحسبة «العقلانية» تغفل أشياء كثيرة كالعنفوان والإباء والشجاعة والإيثار والشهامة والبسالة وغيرها من القيم السامية، التي يراها العقلانيون تخلفاً وأشياء لا أهمية لها على الرغم من أنها جزء لا يتجزأ من الطبيعة الإنسانية، لا بل إنها الأقرب إلى طبيعة الإنسان من غيرها.

تخيلوا لو أن يوسف العظمة قد حسبها عقلانياً، وقدر قواه، وقارنها بقوة جيش المستعمر. لو فعل لما خرج إلى ميسلون.

تخيلوا لو أن سلطان باشا الأطرش حسبها عقلانيا، وسلم ضيفه الذي التجأ إليه، لو فعل لما اندلعت الثورة السورية في جبل العرب.

تخيلوا لو أن فارس الخوري حسبها عقلانياً، وانحاز إلى «مذهبيته»، لو فعل لما كان أبناء سورية اليوم يتغنون بخطبته الشهيرة تأكيداً على وحـدة الشعب السوري وفرادته في التعايش والعيش المشترك.

لو حسب أبطال الجلاء وصانعوه الآخرون الوضع آنذاك "عقلانياً" لما كان الجلاء.

ما فعله هـؤلاء وغيرهم من وجهة نظر «العقلانية» محض «جنون»، غير أن هذا الجنون هو الذي أفقد الاحتلال شرعيته، محققاً أعظم إنجاز في تاريخ الشعب السوري. وهو ربما الإنجاز الوحيد الذي أجمع عليه السوريون كلهم من بين الإنجازات الأخرى.

غير أن المكتسبات والمنجزات لا تعيش من تلقاء نفسها، ولا تعيش لنفسها بنفسها. إنها تحتاج إلى من يدافع عنها ويذود، وعار على جيلنا أن يوصم بأنه ضيع ما ضحى في سبيله أبطال الجلاء وصانعوه.

قد نكون فشلنا بعد الاستقلال في تحقيق الكثير من الطموحات والآمـال، ربما تكاسلنا أو اختلفت أولياتنا باختلاف المراحل، ربما تهنا وغرر بنا أو خدعنا أنفسنا بأنفسنا، لكن الأهم من ذلك هو أن نصون أغلى ما عندنا ألا وهو حريتنا واستقلالنا.

الشهيد

معروف إبراهيم ناصر

سلامٌ للشهيد بكل عيدٍ

غدا أيار ذكرى للشهيد

دم الشهداء للبيداء وردٌ

ويبدو دائماً أحلى الورود

هم الشهداء درع الحق دوماً

يلين ببأسهم صلب الحديد

وقد عصروا الصخور وسال ماءً

وهذا الدرع ذو بأسٍ شديد

تلين لهم صخور قاسيات

سقى الأشجار في كل الجرود

وخاضوا في الحمى حرباً ضروساً

رجال الحق أشبال الأسود

وأقدام لهم نضحت عبيراً

وعطر ذكرهم سفر الجدود

هم منه مدوا أجساداً لتبقى

جسوراً للعبور على الحدود

مشاعل للورى في كل دارٍ

وهم نورٌ على مر العقود

وهم نذروا الدماء لدفع شر

ودحر الرهب من زمن بعيد

ويحمون الديار من الأعادي

وإرهاب الأعارب واليهود

وحربٌ في الحمى دارت رحاها

تزلزل كل سهلٍ كل طود

لنا نصر بإذن الله يدنو

نطل به على كل الوجود

وعودٌ فيه اسم العيد يسمو

ليهنى الجند بالعيد السعيد

ينادي الناس كلهم بصوتٍ

سلامٌ للشهيد بكل عيد

وتوصلنا الشهادة كلّ يومٍ

ومن نصر إلى نصرٍ جديد

إشراقات

غانم بو حمود

- 1 -

الأهرام شاهدةٌ على أوجاع الآلهة
الغرور موطن الإثم،
يا قاطف الفرح عن شفاه الزنابق!
ما بين النيل، والتايمز، والسين.. مثل
ما بين الفرات،
والغانج،
والمسيسبي..
كل ما قبل، وما بعد الإشارة
يسترعي انتباه «كونفوشيوس»
حيث يقطف التفاح قبل
نضوج الفكرة..
حيث للا يحتفي العالم ببراءة الحكماء
والكلمات..
حيث تنصب المنارات أفخاخاً
للأفكار الملونة..!
ينهمر الشرق من علياء الحرف،
يبزغ في ظاهر القصد،
يشتعل في باطن المعنى،
العصم في يد الخالق..
الموشور، القناة، المضيق، الأنفاق
الأسوار، القلاع، القصور، الحكام،
الإرث، الماضي، المستقبل،،،
أيها الزبد المدثر بالفاحشة
«كش ملك..!»

* * *

- 2 -

لا فكرة من دون بذرة،
لا بذرة من دون فكرة..
إذا كانت بعض الأشجار عقيمة
فهي
بالظلال
كريمة..

* * *

كل شيء بمقدار إلاَّ
الكرامة والحرية فلها
تخضعان لقانون
السمسار..

* * *

- 4 -

لا صرامة من غير عادة..
لا عادة من غير
إرادة

* * *

- 5 -

تعلمت القفز حين عرفت أين
أقف..
عرفت القمة لما طوى جناحي
الوجع..

* * *

- 6 -

لما سأل المعلم أبي
«لماذا تأخرت عاماً كاملاً في إرسال الصبي
إلى
المدرسة؟!»
أجابه أبي:
«لم يكن قد تخرج بعد من
مدرسة الغابة»
حتى لو قطعت رؤوسها
لا تقف الأشجار إلا
على
جذورها

* * *

- 8 -

من لا يستفزه جهله
لا تعلمه
عفته

* * *

- 9 -

العيب الذي لا نعرفه فينا
ليس عيباً لو عرفه
الآخرون..

* * *

- 9 -

مقل في بذل المال
خجولٌ في طرح السؤال
مهما طال مكوث قطرة الماء في قاع
المحيط،
لابد من أن تعود إلى
حقيبة الريح.

* * *

إذا اضطررت أن تسرف في إنفاق المال،
لا تسرف بالبوح..
الأغصان تنحني للثمار
الشاردة...

* * *

عيد الشهادات

نذير العظمة

الشهادات بذلها معصوم
عيدها أنت عيدها يا حكيم
آن نادتك في الظلام جراحٌ
لمستها يداك فهي نجوم
من يضيء الدجى إذا طال ليل
من لشعب إذا تلظى الجحيم
غير جيل في نبضه ألف الفجر
وطب قد زينته العلوم
وانبرى طارق بحب كبير
فتولت عن البلاد السموم
يا شهيداً يفدي النفوس بنفس
قد أضاءت، فعانقتها التخوم
والسخي السخي خير على
الناس وعيد على العباد كريم
يتصدى إذا تعصف باغٍ
راح حياً من التراب يقوم
حين ناداه واجب لا يبالي
بانفجار تطير منه الجسوم
مأتم كل مأتم صار عرساً
لشهيد يزفه التصميم
هكذا شاءنا المعلم أن
نهبر درباً معوجه يستقيم
بدم حير الطغاة حميم
ويقين تنجاب عنه الغيوم
غردت دفقة الشرايين
بالحب وغنت جراحنا والهموم
الليالي تصير غير الليالي
وأكاليل شوكنا لا تدوم
كم شبعنا من جوعنا وافترشنا
الشوك واحتل حلقنا الزقوم
ها نزلنا عن الصليب وقمنا
فتلاشت أعداؤنا والخصوم
وانبثاق من الدجى وشروق
وقيام من الردى محسوم
أيها الموت كم تجدد فينا
ألق العمر والربيع العظيم
يا جفافاً يصير غير جفاف
حين تزهو على الجباه الكروم
آن نمضي إلى دجاك كراماً
يهطل الضوء فوقنا والنجوم

أغنية الأصالة

بسام جميدة

يطولُ السَّهر
وتأتين ...
بقامتك الممشوقة..
وقدّك النّحيل.
تتمايلين ...
كنخيل العراق
لم تتعبْه الرّيح...
شعرك الأسود
كظلمة الليل الحالك ..
لا يبدّدُ سواده...
سوى وجهك
المنير كالقمر ..
وفي وسطه
نجمتان...
تبحثان..
عن المستقرّ ..
تحملين قهوة المساء
وحكايا الليل
التي لا تنتهي...
رائحة الهيل
تحملُني إلى
فضاءات بعيدة...
وطعم المسك
يأخذُني إليك...
نجلسُ ...نتجاذب
أطرافَ الحكايا ..
نبحرُ في سواقي عمر
أنهكه جريُ الأيام
وما اشتكت يوماً ...
نتطاولُ ...لقطف قرنفلة بيضاء
تبعدُ عنّا ضجيجَ المُدن
المسكونة بالخراب..
نغفو على حلمٍ جميل ..
تسكنُنا أغنياتُ المطر..
رائحةُ التنّور...
وطعمُ الخبز الطيّب
يحتلّ مساحة واسعة
تحت أضراسنا ...
****
نصحو ..
وإذ بالمدينة
تجلدنا بسياطها القاسية ..
وتتبعثرُ الأشياء ...
كلّ الأشياء الجميلة
تذوبُ في كأسِ عصيرٍ لا يحمل
إلّا اللونَ الزّاهي..
تجرّهم الحداثةُ خلفها ..
ويسيرُ النّاس جموعاً صوبَ
الماكدونالدز
والشيبس
والهمبرغر
دون وعي..
يتناسَون جمرات
يحشونها في أحشائهم..
فلا يستفيقون
إلا عندما تقلّبِهم
المواجع ..
وتهزمهم
الخواصرُ المتألّمة ..
وها أنتِ وحدكِ
سيّدتي...
تأبَين كلّ التزّهات
وتتحمّلين عناء المسافات
لتطبخي بيديك
ما لذّ وطاب ..
لا تبدينَ التياعاً
بأرجوحة الزمان ..
ولا تتذمّرين ...
وتبقَين واقفة
كأشجار الصّنوبر
والسّنديان...
لتكوني راضية مرضيّة ..
****
حبيبتي هذا قلبي
من طحين الأزمات
أصبح رماداً ..
رحاهُ ...
كانت وما زالت أمنية
تكبرُ لتتسلقَ
على جذع الحقيقة ...
يا إلهي ..
مجنون...
وأنا أفاتحك ..
بمعاناتي
وأنت تستعرين
شوقا لإرضائي ..
أضناك شوق المسافات ..
والركض خلف الأمنيات ...
وأنا الغارق
في تفاصيل حزني السّرمدي..
أكاد ألفظ أنفاسي
ولا أزال ...
أطلب من يديك
رغيفاً أسمر
وفنجان قهوة
يحملُ أحلامي

الصراخ

عبد الكريم الخير

ثمّة صراخ وعويل يضج في رأسي، لا أدري أهو صراخ الأم خوفاً من تصرّفات زوجها، أم هو صراخ الأمة هلعاً من حقد أعدائها وشراستهم وجهل أبنائها، أم هو صراخ الأمهات الثكالى والأيامى يندبن أحباء اغتالهم الغدر وخيانة الأقارب.

***

ابكي ما شئتِ واصرخي؛ فلن يفيدك هذا شيئاً، ابكي حتى تهترئ مقلتاكِ، وتعمى عيناك الجميلتان، واصرخي حتى توقظي الموتى، فلن يجني إلا الشماتة والازدراء، الآن تذكري كلامي ونصحي لك، الآن تذكري فقط؛ ولم تعد تنفع الذكرى، ألم أنبهك إلى أصله الذئبي، وقلت لك لا تثقي بوعوده؛ وانبذيه قبل أن يصبح هذا الجرو ذئباً ضارياً، وتبرز أنيابه المسمومة، ويمتلئ جسده بعضلات قوية، عند ذلك سيمزق اللحم ويهشم العظام، ألم أقل لك لا تثقي بوعود هذا الماكر المحروم من قوة العشيرة وسمو العائلة وحتى العصبة المصاحبة، وذخيرة العلم والحسب الرفيع.. وكنت تسخرين من كلامي، وتجيبيني بثقة وأمل: بل هذا ما يجعلني أحبه ويشدني إليه، فقير طموح، وعصامي نشيط، أقف بجانبه صغيراً، فأربحه كبيراً، وأمده بما لدي من حنان وعلم وحكمه، فأصل به إلى ما أصبو إليه، وأجعله الرجل الذي أريد. وكنت تقولين: هذا أفضل ممن يتباهى بحسبه وعلمه ويعاملني بفوقيةٍ وتعالٍ ويعدني خادمة لديه، كم مرة قلت لك: أنت واهمة يا ابنتي، فكريم يعرف حق النعمة ويقدر الأصالة حق قدرها، محترم، يحترم الآخرين، يشد ضعفك بقوته، ويقيل عثراتك بحلمه وحكمته، يثمن حبك وتضحياتك، ويحترمك ويحترم ذويك.. خير لك ألف مرة من لئيم يتملقك اليوم طمعاً بما لديك، يستغل ضعفك وطيبتك، فيكبر على حساب ما لديك من إمكانيات، وغداً سيرفسك ويتعالى عليك.. فكري جيداً يا ابنتي وكنت دوماً تجيبين: هذا الضعيف لن ينسى أبداً أني أنا التي أعطيته القوة والنجاح، وأن عطائي اللامحدود هو الذي جعله سيداً وسيظل إلى النهاية، معترفاً بفضلي، شاكراً وقوفي معه..

إذاً ابكي الآن واصرخي كما تشائين، فقد استنسر البغاث وجاء دور الحقيقة، وتحول الطموح إلى جشعٍ رهيب، والبساطة إلى فظاظة وتعالٍ، والاحترام إلى استهتار والحب إلى إذلال واستغلال ولم يعد لديكِ إلا الاستجداء والبكاء ..

لا, ما زال لدي الكثير، سأذكره بماضيه وبوقفتي معه رغم كل الناس وسترون.. قالت كلماتها وفي أعماقها خوف من الخيبة والفشل.

***

في الليل... منتصفه وربما بعد ذلك سمعت وقع خطواته عبر الصالة الكبيرة، استبشرت، حدثت نفسها: الآن يأتي غرفة نومي، يندس في فراشي، يلاعبني، ينام بين ذراعي، فيصبح هو الضعيف وأنا الفارسة هذا وقت الحب.. لا, لم يعد هناك حب، سيشبع رغبته الجسدية وينام غير عابئ بمشاعري، لا سيغتصبني كما كل مرة، لم يعد يتودد لي، يداعبني، يتذلل وهو يدغدغ كل جوارحي، لم يعد يسترضيني باذلاً الهدايا، مقدماً الوعود، بل أصبح يأتي ليأخذ ما يشاء من دون إذن وبلا أي حساب لمشاعري، يفترسني بوحشية، وينهض مبتعداً لينام منفرداً بعيداً عني.

الآن سأعرف كيف أتمسك به وأجعله يرضخ لطلباتي، ويذعن لإرادتي الآن سوف يدخل، سأتظاهر بالنوم.. ما به؟ لماذا تأخر؟

رفعت رأسها بتثاقل، تفحصت البيت بنظرة سريعة، البيت كله مضاء باستثناء غرفتها وغرفة الأطفال، انتظرت حضوره إليها، طال الانتظار ولم يأتِ، كانت تسمع وقع خطواته، وأحاديثه الهاتفية.. لم تعد تحتمل، نهضت من فراشها، فكرت قليلاً، تعمدت الذهاب إليه بثيابها الداخلية فقط. ذهبت عبر الصالة، تمشي ببطءٍ وحذر ناظرة في كل الاتجاهات، باحثة عنه علّها تضبطه من دون أن يحسّ بها.. كان في غرفة المكتب وحيداً منهمكاً بتقليب بعض الأوراق، أمامه كأسٌ وبين شفتيه لفافةٌ تحترق، قرعت الباب بأدبٍ ودخلت، نظر باتجاهها، ابتسمت وحيّت بما يشبه الحب..

ردّ باقتضابٍ واللفافة ما تزال بين شفتيه.. أحست بالحرج، تمالكت نفسها وسألت بحنانٍ متعمد: كيف لي أن أساعدك؟

ردّ باقتضاب : لا أحتاج إلى شيءٍ.

- هل أضع لك العشاء؟

- لا لا اذهبي لنومك ودعيني.

- لا يطاوعني قلبي، أتركك وحيداً في هذه الساعة المتأخرة من الليل..

ضحك بخبثٍ وسخرية، اذهبي لنومك ودعيني أعمل. وعاد لأوراقه وسجلاته بعد أن تخلص من اللفافة ورشف جرعة كبيرة من كأسه.

وفكرت قليلاً؛ فهي لم تأت لتذهب من دون نتيجة، اصطنعت الحب وجلست قبالته تاركة مئزرها الشفاف ينفرج عن فخذيها، رفعت ساقها تريحها على الأخرى، وسألته: ألم تتعب حبيبي من العمل حتى الآن؟ تعال أريحك بين ذراعي وغداً تكمل.

نظر إليها بجدية: قلت اذهبي لغرفتك ولا تعطليني أكثر.. وأغلقي الباب وراءك.

تجاهلت الصفعة وقالت بحنانٍ مصطنع: حسناً حبيبي، سأكون بانتظارك. وخرجت بانكسار تتجرع الهم والذل وحيدة في فراشها. طال سهادها وانهمرت دموعها على الوسادة تطفئ لهيباً مدفوناً، عندما أغفت كان نور الفجر الوردي يتسلل عبر النافذة.

***

أفاقت متأخرة وكان صراخ الأطفال يملأ البيت، هبَّت خائفة, قد يوقظونه فيصب جام غضبه فوق رأسي، أسكتت الأطفال وأغلقت عليهم باب المطبخ بعد أن وضعت لهم إفطارهم، كلوا من دون ضجة، ثم اذهبوا إلى الحديقة، والعبوا حتى أناديكم؛ فلكم عندي مفاجأة جميلة.. ولم ترد على استفساراتهم، بل ذهبت إلى مكتبه وبأعماقها أمل.. فتحت الباب بحذر ودخلت. كانت الأوراق والأشياء فوق المكتب بفوضى واضحة وما من أحدٍ في المكتب، سريره مرتب والأضواء مطفأة، رفعت سماعة الهاتف الداخلي، ردّ حارس الباب فسألته: متى ذهب معلمك؟

أجاب: منذ ساعتين.

نمت هواجسها؛ واندلع في أعماقها حقدٌ ممزوج بحيرة وقلق.. ثم راحت تخطط لمقابلة جديدة..

في المرة القادمة، سأتبرج وأعرض مفاتني، بل سأغني وأرقص له سأتغزل به وأمدحه، أنت زينة شباب الدنيا، أذكاهم، أشجعهم، أبعدهم نظراً.. ويسعدني مشاركتك التخطيط لمستقبلنا ومستقبل أولادنا..

كما أشتهي وأريد، ستظل محبوباً ومحترماً من الجميع، ولكن يا حبيبي قليلٌ من التواضع سيرفعك إلى السماء في نظر الكلّ، امنحنا بعض الحب والتسامح والمشاركة وسترى كم سيشدنا ذلك إلى بعضنا ويزيدنا تلاحماً وتضامناً، سأقرأ له أشعار الأقدمين، حكمهم، سأقرأ له شعراً غزلياً وأنصحه كما كنت أفعل منذ سنين.. وراحت الأم تمعن في تفكيرها مخططة لما ستفعله في جلستها المقبلة مع زوجها، حتى أدركها الرقاد فأغفت مرهقة مقهورة..

* **

كان فارس من الرجال القلة الذين يعملون بالليل وينامون النهار، يكرهون الشمس ويهربون من وضحها، يخلدون للنوم عندما يبزغ ضوء النهار، نائين عن الناس وتاركين لموظفيهم وحراسهم تسيير الأعمال العادية وحجبهم عن مقابلات الآخرين حتى الأصيل؛ حيث يبدأ يومهم، فينشطون ويبدأ التخطيط ومتابعة التنفيذ، تتفتق أذهانهم عن إبداعاتهم المعجزة في جني الأرباح وجمع الثروات بما لا يحسب للشرع أو القانون أو المنطق حساباً، إنها شرعتهم هم وقانونهم الخاص مسمين ذلك، الاقتصاد المنطلق، تهكماً وسخريةً من مناهج الاقتصاد المدروسة في الجامعات والأكاديميات والكتب، يتابعون أعمالهم بهمة لا تفتر ونشاطٍ غير محدود تخطيطاً وتنفيذاً في عتمة الليل بعيداً عن أعين الحسّاد والمراقبين, مسخّرين لخدمتهم مجموعة من الأبطال ممّن كبرت معدتهم وصغرت أنفسهم، وتجرّدوا من إنسانيتهم وكرامتهم، فالمهم الكسب السريع والوفير وإرضاء ربّ العمل.

كان فارس أحد الخائضين البارعين لخضم حياة الليل الاقتصادية، بل فارسَها، فاق الجميع جرأةً ودهاءً, وكان خلال جريه الدائب في عبابها يزور بيوته العديدة ومكاتبه الكثيرة ومستودعاته ومشاريعه، موزّعاً نشاطاته وكنوزه فيها، معطياً أوامره الصارمة من دون نسيان أو إهمال، فهو الحاضر الغائب، البعيد القريب، اللطيف الرهيب من الجميع ومع الجميع.

أحست بدخوله بيتها وانفراده بغرفته الخاصة، استبشرت من جديد، ستبذل كل ما لديها وكل ما خططت له لتعيده إليها، استقبلته بلهفةٍ ورجاء، راحت تداعبه وتعانقه.. فوجئ بتصرفاتها، نظر إليها بحياديَّةٍ وغرابة، أمعنت بحركاتها وحديثها العذب، غنّت، رقصت، قرأت الأشعار، حشرت نفسها في حضنه، لفّته بين ذراعيها.. تبرّم منها دفعها عنه طالباً منها الابتعاد لأنه مشغول.

وأنا أيضاً مشغولة بك فقط، اطلب مني ما تريد، وأنا رهن إشارتك أجابها بحدة هذه المرة: لست مرتاحاً لك ولا محتاجاً، فدعيني ولا تعطلي أعمالي.

كابرت قائلة: لكنني يا روحي أريد مساعدتك فقط، هل تريد طعاماً أم شاياً أم قهوةً أم مشروباً أم...

- أريد فقط انصرافك..

- الأطفال مشتاقون إليك، ألا أحضرهم ليلقوا عليك التحية؟

- لا, إنني مشغولٌ جداً فدعيني أعمل.

- إذاً أساعدك ومن ثم نفطر جميعنا معاً.

صرخ محتداً وأخذ سماعة الهاتف طالباً أحد مرافقيه، جمع أوراقه في حقيبةٍ وخرج منفعلاً.

هنا انفجرت صارخةً هي الأخرى، وقد بلغ بها الغضب أشده: من تظن نفسك؟ ومن أنا بالنسبة إليك؟ افهم أنه لا يمكنني السكوت إلى الأبد، وعليك أن تحسب لي ألف حساب فأنا التي..

قاطعها بلهجةٍ صارمةٍ وإن كانت هادئة: اخرسي تماماً أو أمسحك عن وجه الأرض، ثم أغلق الباب بعنفٍ، وخرج يسبقه معاونه الذي حمل الحقيبة ومضى..

تلقت الصدمة المباغتة وأسقط في يديها، فقد ذهبت تخطيطاتها وأحلامها في الهواء، وتذكَّرت كلام ذويها حاسبةً للشماتة والخيبة ألف حساب.. سيمسحني ويذلني ولكني لن أستسلم، هذه المرة سأصرخ بوجهه مهما كلفني ذلك، سأقول له من أنت ومن تظن نفسك؟! ألست من صنعك وقدَّم لك كلّ شيء وحولتك من متسوّلٍ تلهث وراء لقمة العيش؟! قدمت لك المال والحب واحترام الناس مضحية بأهلي ومعارفي فإذا بك الآن تتجاهلني وتحتقرني، ولم أعد الزوجة المخلصة ولا الصديقة الوفية ولا الشريكة في شيء، تفعل ما يحلو لك وتمنعني من كل ما أريد.. سأضع حداً لطيشه واستهتاره و..

كان الألم يعتصر قلبها، فقد أوصلها فارسها الذي اختارته وفرضته على الجميع إلى وضعٍ مزرٍ من الإذلال والازدراء، محتقراً أهلها ومعارفها وتفكيرها الطيب، وزاد ألمها غصة معرفتها بزواجه الجديد ومصاحبته للعديدات غير عابئٍ بأطفاله وأمهم الصابرة..

عاد من جديد إلى البيت وبالتحديد إلى مكتبه وخزائنه المقفلة، وانتهزتها فرصة جديدة لمجابهته بكل الحوار الذي كتبته في مخيلتها مراتٍ ومرات، وراحت تلقي عليه كل دفاعاتها وعندما رأت تجاهله لها وعدم اكتراثه، راحت تصرخ مبينةً ما قدمت وأعطت، شارحةً ما لحق بها وبأهلها من ظلمٍ وإذلال، تبكي مرةً وتصرخ حيناً، ولم تعد عابئةً بأطفالها الذين استيقظوا وأتوا يشهدون المشادّة العنيفة..

أخيراً, وقف بمواجهتها، وحملق بوجهها محافظاً على هدوئه، وتكلّم بلؤمٍ وسخرية:

- اسمعي لقد حفظت أحاديثك كلها، أشعارك، نصائحك، بكاءك وصراخك، ولكنني أكره الشعر وأمقت النصح، وأنزعج من البكاء؛ أما الصراخ فيدفعني إلى الجنون أحياناً، وعندما أجن لا أعرف بماذا أتصرف ولا كيف.. قد أقتل أو أسجن أو أحطم؛ فاحذري إثارتي بصراخك.. هل فهمت؟ ثم حمل حقيبته وخرج مطلقاً الشتائم صارخاً بمرافقيه وانطلق، الجميع بقافلة سياراتٍ مرعبة.. وبقيت شبه سجينة في البيت ممنوعة من مغادرته لأي سبب كان.

***

عاد بعد أيام وكان مختلفاً هذه المرة، فقد حضر في بداية الليلة يطفح البشر من محيَّاه؛ وابتسامة عريضة تملأ وجهه، وجلس في مجلس العائلة مسلّماً على الجميع معانقاً أطفاله، وكان مثقلاً بالهدايا، استبشرت أخيراً وسألته بود: ألن نتناول العشاء معاً؟

أجابها برضا: نعم، ولا تتعبي نفسك، فالعشاء على الطريق، وراح يوزع الهدايا على الأطفال ونادى كبيرهم: تعال يا همام لقد أصبحت رجلاً تستطيع تحمل المسؤولية، وعليك قيادة المنزل في غيابي، وأخرج من إحدى العلب مسدساً حربياً ناوله لصغيره ابن الثانية عشرة.

صرخت الأم: ما هذا وهل هذا هدية الطفل، ظننتك أحضرت لعبة أو كتاباً... فأجابها مؤكداً: لا همام كبر على اللعب وسيصبح بطلاً يحمي عائلته ومنزله، أليس كذلك يا بطل؟

ابتهج الطفل رغم الخوف الظاهر على محياه وهو يمسك بالمسدس الثقيل: الآن سيتمرن على استخدامه، أمسكه هكذا، صوب على الهدف هكذا ثم اضغط الزناد. وضغط الرجل موجهاً المسدس باتجاه مزهرية كبيرة وجميلة تزين النافذة، لعلع الرصاص، وطارت شظايا المزهرية داخل البيت، وصرخت ابنته الصغيرة باكية، وسدّ أحمد أذنيه مرتعباً، وحده همام ابتهج بفعلة أبيه الجنونية، وحمل المسدس مسروراً، وراحت الأم المستغربة تحاول نزع المسدس من يد ابنها صارخة مولولة، بينما فارس يضحك بشكل هستيري.

صرخت الأم: ماذا تريد؟ قتل الأولاد ودمار البيت، لو كنت...

- أنت لا تفهمين، يجب أن ينشؤوا أبطالاً، وإلا فسيدوسهم الزمن الوحش.

أفرغ المسدس ووضعه في علبته وأعطاه لابنه قائلاً: غداً نذهب مع يوسف السائق إلى خارج المدينة، فيعلمك قيادة السيارة واستخدام المسدس، ولا ترد على أمك الضعيفة المتخلفة.

وراح يضحك. كان أحد مرافقيه قد أحضر الطعام، وفاحت رائحته الشهية في البيت فأقبل الجميع على الطعام مسرورين ما عدا الأم المقهورة.

ظل فارس محافظاً على بشاشته يعطي تعليماته لأطفاله، متجاهلاً حرد الأم وانكسارها، أنتم ستصبحون أبطالاً، وعليكم تعلم القيادة والرماية والفروسية وجني الأموال ولو بقوة السلاح... فالقوة تؤمن لكم كل شيء، حتى احترام الآخرين... أردفت الأم ساخرة: وحبهم... أجاب فارس: الحب شيء غير مهم لمن يمتلك المال والقوة. وراح يمازح أطفاله ويلاطفهم، نافخاً فيهم روح العزة الجوفاء والعظمة المزيفة، بينما تتمزق الأم من بون المفاهيم وبعد وجهات النظر حتى عدم الالتقاء....

أخذت عودات فارس إلى منزله تتباعد، يتحاشى لقاء الأم المقهورة، ويكتفي بمجالسة ولديه مطمئناً على تنفيذ تعليماته، كما كان الأولاد يذهبون إلى أبيهم كلما شاء، أما الأم فرهينة البيت، حبيسة الجدران، غير أن صراخها ما زال مستمراً، فإن كان فارس بعيداً فقد ترك مكانه لفوارس جديدين يسيرون على خطاه وينهجون نهجه، ويستمر الصراخ...

أَصْـــــوَات

فوزي الشنيور

أَنَا لَنْ أَنَامَ
وَهَذهِ الأَصْواتُ تَنْخُرُ فيْ الْمَسَافَاتِ الَّتيْ
بَيْنِيْ وَبَيْنَ الْبَحْرِ
تـزْفُو فِيْ قَمِيْصٍ كالكفن؛ يُشْبِهُ كَفَنِيْ
تُحَاوِلُ أنْ تَغِيْبَ بِصَمْتِهَا حِيْنَاً
لِأَسْقُطَ فيْ كَمَائِنِهَا
وَلَكنِّيْ سَأَبْقَى حَارِسِي رُغْمَ الْغَشَاوةِ
رَيْثَمَا تَجِدُ الْحُقُولَ بَلابِلِيْ
*****
أنَا لا أُكَذِّبُ مَا سَمِعْتُهُ
إنَّهُ يَكْفِيْ
لِأَدْخُلَ فيْ السُّباتِ الانْفِرَادِيْ
أوْ لأَحْذَرَ فيْ انْتِبَاهِيَ
إنَّهَا تَلْتَفُّ مِنْ حَولِيْ
أَمُدُّ يَدِيـ أَمَامِيـ فيْ دَيَاجِيْهَا
أُنَبِّشُ فيْ زَوَايَا الْبَيْتِ
عَـنْ أَمَـلٍ
لِيَسْحَقَ مَا تَمَتْرَسَ مِنْ لَوَافِحِهَا
علَى شَتَّى جِهَاتِيْ
لا أَشُكُّ بِمَا أُوَاجِهُهُ
يُنَبِّهُنِيْ سِوَايَ إِلَى جُرُوحِيْ
لا أُسَجِّلُ مَا يُقَالُ
لَعَلَّهَا تَمْضِيْ إِلَى خَزَفِ الْخُمُودِ
لَعَلَّ يُسْكِتُهَا هُبُوبُ خَمَائِلِيْ
******
لا جَرْحَ يَمْنَعُ سَاعَةَ الأَمْطَارِ مَنْ أَنْ تَسْتَمِرَّ عَلَى طَبِيْعَتِهَا
لِذَا سَأَظَلُّ أَغْزِلُ مِنْ رَحَيْقٍ ثَائِرٍ
سَأَضِيءُ نَفْسِيْ نَبْعَةً
كَيْ يُذْبَحَ الطَّغْيَانُ فيْ غَايَاتِهِمْ
وَلِكَيْ تُخَبِّرَنِيْ الْحَدَائِقُ عَنْ وَصُولِ رَسَائِلِيْ
*****
لا أَسْتَطِيْعُ سِوَى أَنَاشِيْدِ الْجَمَالِ
وَجَدْتَهَا بِدَمِيْ
فَصِرْتُ بِهَا كَمَا تَهْوَى الْوُرُودُ
أنَا كَثِيْرٌ بِالسَّنَابِلِ
لا أَحُبُّ سِوَى الْجُنُوبِ
أَرُشُّ دَوْمَاً بِالْغِيومِ
وَلا أُسَاهِمُ بِانْتِهَاكٍ لِلسَّنَا
أوْ أَنْ أُوَفِّرَ فيْ الْبُنُوكِ جَدَاوِلِيْ
*****
وَحَصَرْتُ أَنْفَاسِيْ بِحوضِ مَسَافةٍ خَضْرَاءَ
لا تَمْتَدُّ خَارِجَهُ
خَرَجْتُ لِفَتْرةٍ مِنْهَا
لأَعْرِفَ مَا يَدورُ وَرَاءَ أَسْوارِيْ
وَهَلْ بَقِيَ الظَّلامُ
ظَنَنْتُ أنَّ النَّاسَ قَدْ يَنْسُونَنِيْ
لكنَّهُمْ كَانُوا وَرَائِيْ
دَلَّهُمْ بَعْضِيْ عَلَيَّ
وَمَا لَدَيَّ سِوَى الْقَرَنْفُلِ
فَالْقَرَنْفُلُ لا يَزِيْحُ عَنَ الضَّرَاحةِ
لا يُؤَجِّلُ رِحْلةَ الْعَبَقِ النَّمِيْسِ
يُثِيْرُ غَيْضَ الْحَاسِدِيْنَ
لِذَا تَرَانِيْ لَسْتُ آخِذُ بِالْكَلامِ
ولا يُفَاجِئُنِيْ جُحُودُ الْبُرْتُقَالِ
ولا أَلُومُ عَلَى الْغُيُومِ لأَنَّهَا كَذَبَتْ عَلَيَّ
وَمَا عَلَيَّ سِوَى التَّمَنِّيْ
كَيْ أُلَهِّيَ مَا تَبَقَّى مِنْ فِرَاخِ تَفَاؤُلِيْ
*****
أَرْنُو لَهَا
لا شَيْءَ فِيْهَا يَسْتَحِقُّ الانْعِطَافَ إِلَى سِوَايَ
فَمَا الْحَيَاةُ سِوَى كِتَابٍ يَنْتَهِيْ مِنْ حَيْثُ يَبْدَأُ
نَحْنُ صُفْرٌ؛ نَنْتَهِيْ مُنْذُ الْبِدَايةِ
لا تَلُومُونِيْ
أَنَا رَجُلٌ
أُبَلِّغُ مَا أَتَى بِرِسَالَتِيْ
أَمْشِيْ بِحَسْبِ مَشِيْئَةِ الْوِجْدانِ
هَيَّمَنِيْ التَّصَوُّفُ
قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ حَوَاسِيْ
لَنْ أُبَدِّلَ كَعْبَتِيْ
كُتُبِيْ ـ هُنَا ـ قُرْبِيْ؛ وَفِيْهَا مَا يُؤَجِّجُ نَشْوَتِيْ
أَوْ يَدْفُشُ الْغُرْبَانَ نَحْوَ هُرُوبِهَا
أَنْسَى سِوَايَ بِشَأْنِهِمْ
وَأَعِيْشَ وَحْدِيْ
كَيْ يُسَاعِدَنِيْ الْقَوِيّ عَلَى تَجَاوِزِ قَاتِلِيْ

اتساع الفوالق

آمال شلهوب

لمعت البيارق من بعيد وهلّت النصال تلوّح بالنصر، رجع الغابرون إلى الوراء فسُحقت أرواحهم العاهرة. أوكارهم المشتعلة بلهيب الأبطال باتت رماداً تحت همیان الغيث.

رقصت جثامين الشهداء تحت التراب. ارتوت بعد الظمأ الطويل في لهيب الصيف تأمل القيامة، لتحيا في مدن فاضلة يسوّرها طوق النعيم المرصّع بآيات العلا, الملتف حول بشرية تتغنى بالطهارة.. تتمايل بأثوابها البيض تطوف بخضرة الرياحين، فينتعش المكان بِعَبَقِها. توسعت شرايين القلوب لاستقبال كل أطياف النفوس على تهليلات الملائكة التي تحوّم بين الكائنات الحية المتعايشة على الأرض, بعد أن اضمحلّت المؤامرة, وتلاشى مؤيدوها الذين رحلوا عن المقدسات بلا رجوع.

عاد الأبناء بعدما رُفعوا من الأتون سالمين, عادوا رجالاً من لج الملاحم, ضلوعاً من أنكيدو الذي قدّم حياته تضحية من أجل رفيق العمر. أتوا بالوفاء والصدق للأرض والسماء, يحرسون الأزقة والدهاليز التي انبسطت ساحات بعدما نزعت الجدران عن طرفيها ضيقَ الظلام, لترى واسع النور المنتشر فوق أحلام قاطني المكان بفيض نِعَمٍ صمتهم المنطلق إلى عنان الأفق. يفتح سكونهم أبوابَ الجديد, يمتطي صهوة الليل, يسبح في رقعة الفضاء, و المشاعر تدور حول سدّة الكواكب, متناغمة مع المدارات, تائهة في اكتشاف المراصد الأرضية.

تخترق النفوس الغلاف الجوي, تدخل إلى مسارات الكون, متسللة نحو اخضرار نبتون, مستكينة في ذلك الطيف بعد جولة طويلة في عالم رحب المدى.

لكن الغيرة دفعت قمره الوحيد إلى إبعاد من استكان على كوكبه.

تهرب الأعماق الخُلّبية من وَهم الأماكن إلى الخلجات الدفينة تتلاقى في صدى الفراغ ملتحمة في جوهر واحد, تهبط فوق الأجساد التي استمدت منها الروح فتسربلت بالحياة. مستيقظة من أحلام القواقع المتمرّغة بين أسلاك الأسيجة الشائكة, تنظر حولها لتستقبل البِشْرَ الذي أنبتته عجائب الأرض. وعلى صلابة الأديم رغم الأوجاع, بدا عرس البَشَر يرسم المشهد بالآدميين الذين هللوا لرجوع البشرية, بعد أن فضّت عنها رداء الحشرات الذي تلبّسها طويلاً.

تحققوا من عودة الأنس إلى الأرض الأم.. فانزاحت الصدور إليها متغلغلة فيها, تخفق حنيناً للقاء بعد غربة قاهرة تلاحق الأنّات.. مندثرة في دفء طال به بُعْدَ المسافات.

جثت الشفاه على التراب تقبّل الحفنات, مقدمة الاعتذارات لذراتها المتألمة من فعل الزلزلة التي ابتدعتها المخالب حين هَلَّعَت أجوافَها بالاهتزازات الترددية، فهرعت ينابيع المياه بعيدة عن وطنها, نازحة إلى حيث لا تدري، تاركة وراءها طيّات من جفاف الركام, بعدما انجرف السهل بضربة المخالب التي تناولت شطر خضرة الجبال, لترتمي فروع الأيك حطاماً على بعضها بعضاً؛ حيث حال بينها وبين اجتماع الشمل اتساع الفوالق.

أماه ...حنيني إليكِ لا يخبو

ملكة أحمد الشريف

أماه يا زهر اللوز في ذاكرة الوطن
ويا مفتاح الدار الذي ما زال يدق أبواب عودتنا
أماه يا خطوط الزمن في الجباه الحانيات
أماه يا أجمل ترانيم الصباح
و يا أجمل الأمنيات
.....
أماه يا دمعة يتيم مسحتها أيادي الأمل..!!
ويا ذكرى المحبة والطفولة التي لم تزل
كم اشتقت إليكِ يا أجمل الأمهات
....
أماه حنيني إليكِ لا يخبو
أراك في كل ما أحب
أراكِ في قطرات الغيث التي داعبت الثرى
أراكِ ألحانًا تغردها الطيور
أراكِ كنسيم البحر يبعث في الحبور
أماه... أراكِ في كل الفصول
فأنتِ شمس الصباح العذب
وقمر الليالي الحالكات
....
أماه يا أجمل الملكات
ويا أروع وطن
أماه يا أجمل ما في الكون
كم اشتقت إليكِ يا أمي...

شعور

ربيعة نجم غانم

وطني ...
تُعَرِّشُ في رؤايَ
وياسمينُ الروحِ
يفترشُ المطارحَ
في دمي
لتهبَّ نحوكَ صَبوتي
في مركبٍ للعشق
يبحرُ في العيونِ
تحثُّهُ نحو المرافئ
صحوتي
كي أستفيقَ
على خيوط النورِ
في فجرٍ تُعَلّقِهُ
الأماني
رايةً للحُلمِ
تغفو
فوق رمش الطهرِ
تضفُر
رِزمة الريح السَّمومْ
وتسير في معنى الوجود
تيمناً
والعادياتُ تغطرست
في نشوة الغدر المسمّرِ
في فجورِ الغادرين
* * *
وطني تعتّق في هواي
ما زلتُ مُنشَغِلاً بنفحِ
الطيب من زمن ترامى
حينَ أحسستُ
مراسيهُ الحزينة
لا تملُّ
تحطُّ دوماً
في شواطئ غربتي
وتديم دورة عمرها
الغافي على رمل
الوفاءْ.
وطني تمدّدَ في الضياءْ
وتناثرت أصداء حلمٍ
في خشوع.
وسمعت زغردةً
على رعشِ المدى
في ضحكةِ الشمسِ
السطوع.
جالت بنظرة حُرَّةٍ
بَرَقَتْ بعينيها الدموعْ
وطني تعلّقَ في هوايْ
فغدوتُ فوق صليبهِ
غُصناً يُباركني يسوع.

شيخوخة نابضة

رؤى يوسف سلمان

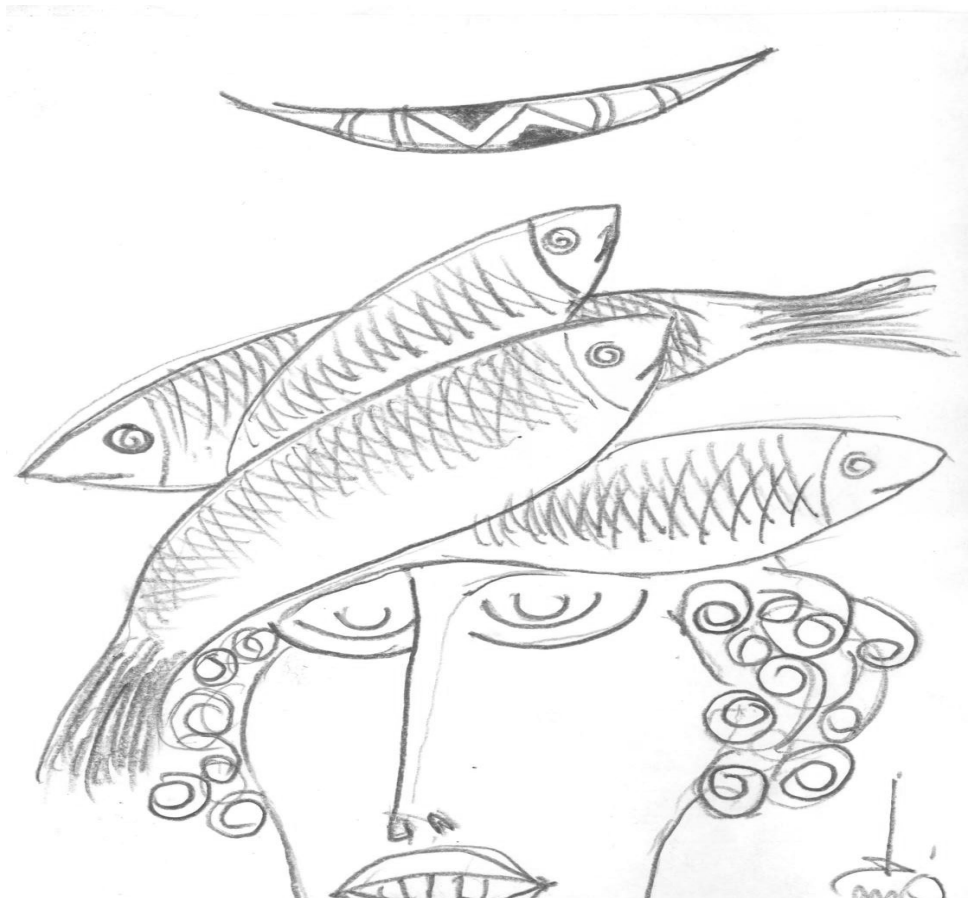

1 ـ جَدَّتي العَجُوز:

جَدَّتي العَجُوز ناصعَة الجبين، لامعَة العَينين.. كلَّ يَومٍ تستيقظ صَباحاً لتجدَ الأولادَ نياماً تصيح فيهم:

ـ انهضوا يا فراريجَ النهار صَاح الديكُ، ورقصتِ العصافير، وأنتم نيامٌ؛ ويلي من هذا الجيل؛ عالة، وكسل، فننهض جميعاً على إثر صيحةِ جدتي.. نغسل وجوهنا، وأيدينا بالماء.

جدَّتي لا تحبُّ الإسراف، تصرخ بنا:

ـ ويلكم من الله؛ أيَّام كنتُ مثلكم؛ كلَّ يوم كنتُ أذهبُ لأحضرَ المياه من النبع مع أخوتي نَمشي ساعاتٍ، ومسافاتٍ طوالاً، نحملُ الجرارَ الكبيرة، تنوءُ ظهورنا بحملها، ونصلُ إلى منازلنا مُحطمي الأكتافِ، ثمَّ نعودُ لنملأ جرَّة أخرى؛ يا عيب الشوم! لا تدارون النعمة ولا تشكرونَ الله.

جدَّتي تخرجُ غاضبة من تصرفاتنا السيِّئة، تطبقُ البابَ خلفها، وتخرجُ إلى الدار تراقبُ أمورها.. نسمعُ صوتها تحدِّث الدَّجاجات:

ـ يا صديقاتي الجميلات جائعاتٌ أنتنَّ محبوساتٌ في هذا القبو الصَّغير، ألم يفتح لكنَّ أحدٌ من أهل الدار؟ لولايَ لمتنَّ جوعاً، وقهراً؛ كنتي المغرورة لا تساعدني.

تفتحُ الجدَّة بابَ الخن لتخرجَ منه الدجاجات، ويركضنَ منه.

ترمي لهم الجدَّة بفتاتِ الخبز، وتقول:

ـ هيه هيه خذوا.

الدجاجاتُ اللاتي شبعنَ من الخبز الذي رمتهُ لهم الكنَّة باكراً ركضنَ بعيداً إلى داخلِ الحقل.

الجدَّة تنادي:

ـ آهٍ يا ملعونات؛ أنا أسعى لإطعامكنَّ، وأنتنَّ مشغولات باللعب، والتسليةِ؛

سآخذ الديكَ من عندكنَّ حتى تموتنَّ غمَّاً، وغيظاً.

جَدتي الاقتصادية تتجهُ نحو نعجتنا، وخروفها الصغير.

ـ يَا نعجتي الجَميلة كُلي هذا العشبَ الطازجَ؛ سأعدُّ لك اليومَ، ولخروفك الجميل طعاماً ساخناً؛ لا تخافي سأحممكما بالمياهِ الدافئة.

تسرعُ جدَّتي لتعدَّ مَوقدَ النار. تبدأ بتقطيع الحطبِ، وهي تبرير:

ـ ويلي منهم؛ عشتُ كلَّ هذا العمر أقطعُ الحطبَ بيدي، أحملهُ على ظهري، أشعلُ النارَ، أعدُّ التنورَ، أخبزُ الخبز، أفلحُ الأرض، أرشُّ البذار، وأغرسُ الغرسَ من غير أن يطلبَ منِّي أحدٌ ذلك؛ لأنَّه واجبي. لا أعرفُ ليلاً من نهار من كثرةِ الأعمال، والأشغالِ؛ ثمَّ أنامُ منهكة حتَّى الفجر؛ لأبدأ يومَ عملٍ جديد، وعلى الرغمَ من كلِّ ذلك لا أجدُ حفيداً واحداً يمدُّ يدهُ نحوي، وهذه الكنَّة المستهترة التي تدَّعي أنَّها مثقفة كل هذه الثقافة، ولم تتعلم كيفَ تربِّي هؤلاء الأولاد، وتعتني بالرزق، والبيت.. وبينما الكنة تنشرُ الغسيلَ على السَّطح تلحظُ العجوزَ تشعلُ النار.. تتركُ ما بين يديهَا، وتسرعُ هلعة نحوَ العجوز كي تتمَّ المهمَّة عنها، وتتلافى المُصيبة القادمة.

ـ عنكِ يا حماتي أنا سأشعلُ النار.

تمدُّ يدها، تكمل تقطيعَ عيدان الحطب.

الجدَّة بامتعاض:

ـ أكملي إشعالَ النار، وأعدِّي برميلَ المياهِ حتَّى يغلي، ثمَّ أحضريه إلى الزريبة.. أنا ذاهبة الآن كي أطعمَ الخروفَ، وأمَّه.

تتركُ الجدَّة ما بيديها، وتسرعُ نحوَ النعجةِ، والخروف.. تكنسُ الأرضَ، تلاحظُ حجارة عليها، تنقلها إلى ضفَّة الحظيرةِ الأخرى حتَّى تصنعَ هرما لا بأسَ به.. تحضرُ أمِّي المَاء.. جدتي تهيِّئ الخروفَ والنعجة، تمسكُ صابونَ زيتٍ كبير.. في البدايةِ تدلقُ المياهَ الدافئة على ظهر النعجة.. يبدو أنَّ النعجة سُرَّت بالمياه.. أحسَّت الجدَّة بذلك فسكبت المزيدَ من المياه على النعجةِ، وأخذتِ تدلكُ النعجة بالصَّابون، تفركُ صُوفها، تداعبهَا، تغدقُ عليها بالمياهِ الدافئة.. النعجة سعيدة، وجدَّتي سعيدة لقد نظفتها جيِّداً وعندما انتهت اكتشفت أنَّ المياهَ الدافئة نفذت، ولم يبقَ شيءٌ للخروفِ منها.. تنظرُ حولها فلا تجدُ الكنة.. جَدَّتي راضية سَعيدة لا حاجة إلى أن تصرخَ بأحدٍ كي يعدَّ لها مياهاً سَاخنة.. تنظرُ إلى الخروفِ، وتقول:

ـ يا عزيزي لا تحزن؛ سأحضرُ خرطومَ المياهِ، وأغسلك به.. الخروفُ مُستعدٌّ لحمَّام جميل ليس دافئاً كما النعجة لكنَّه سينعمُ بكمِّيَّاتٍ وافرةٍ من المياهِ تنسابُ على ظهرهِ ورأسهِ، وقدميه.. النعجة تنفضُ قطراتِ المياهِ عنها، تداعبها جدَّتي، وترشُّها من الخُرطوم.. المياهُ تنسابُ على السَّاحة الحجريَّة أمامَ الحظيرة.. جدتي سعيدة، والنعجة والخروفُ أيضاً.. تدخلُ البيتَ بعنفوانٍ، ومرحٍ، تنادي:

ـ هيَّا إلى الإفطار يا أولاد.

نعدُّ المائدة جميعَاً، ونتحلقُ حولَ الجدَّة.. جدَّتي راضية الآن وسوفَ تغمرنا بدعواتها الطيبة.. نأكلُ بشهيَّةٍ؛ فالإفطارُ معَ الجَدَّة لهُ طعمٌ مُميَّز المهم أنَّها راضية وبعد قليل ستحكي لنا قصصاً كثيرة عن ماضيهَا القديم الذي لم تنسَ منه شيئاً حتى الآن, لكن بالطبع ليسَ على مائدة الطعام؛ لأنَّ من آدابِ الطعام قلَّة الكلام.. حكت لنا جَدَّتي الكثيرَ، وغنتْ لنا قصائدَ شعريَّة جميلة حفظتهَا عن ظهر قلبٍ مُنذ أن كانتْ صغيرة مع أنَّها أمِّيَّة لم تدخل مدرسة واحدة في حَياتها.. جلست على البساط، وأدارتْ ظهرهَا للشَّمسِ لأنَّها جلسة صحِّية هكذا علَّمها الأجداد.. منديلُ جدَّتي يلمعُ في الشَّمسِ حتى صارَ كأنَّه شمس.

2 ـ أبو جميل:

أبو جميل أكبرُ شيخٍ في قريتنا الصَّغيرة.. لهُ هيئة خاصَّة؛ به عَمامة بيضاءُ، ذقنٌ بيضاءُ مستديرة، سروالٌ أسودٌ قديمٌ جدَّاً لا يغيِّره، وعَباءة سميكة بعضَ الشيء.. أبو جميل بدأ يفقدُ ذاكرتهُ، وإدراكهُ يوماً بعد يوم.. إنَّه لا يؤذي أحداً، ينصحُ الآخرينَ، يحبُّهم، يُصلحُ بينهمْ إذا أحسَّ بأصواتهم تتعالى، يصيحُ بالأولادِ الصِّغار إذا كانوا يتناوشونَ كي يتأدَّبوا، ولا يؤذي أحدُهم الآخر.. يجولُ الحاراتِ كلها، ولا يسمحُ لأحدٍ أن يرفعَ صوتهُ في وجههِ عند ذلك يضربهُ بعكَّازه الكبير.

يمشي الآن في الشَّارع، يسمعُ صوتاً من بعيد ينادي:

ـ إيَّامو.. إيَامو.. ما أحلا إيَّامو.

أبو جميل لا يُحبُّ الضجيجَ؛ لأنَّه يعني الشرَّ، والسوء.. يهرولُ مسرعاً نحوَ مصدر الصَّوت، يصلُ ليجدَ رجلاً عندَ عربةٍ، والناسُ حولهُ يشترونَ منهُ الخبزَ، ويذهبون.

أبو جميل يقتربُ منهُ بحذرٍ حتى يُصبحَ خلفهُ؛ الرجلُ يُحسُّ بشيءٍ ما ينظرُ خلفهُ وإذ به عجوزٌ كبير.

يبتسمُ له، ويصيح:

إيَّامو.. إيَّامو.. ما أحلى إيَّامو..

هنا تشتدُّ ثائرة أبي جميل، يرفعُ عكازهُ عالياً، ويهوي بهَا على الرجلِ، وهو يشتمه:

ـ يلعن والدك ثمَّ والده..

3 ـ الصبارة العجوز

مرَّ شيخٌ عجوزٌ أمامَ شجرةِ صبَّار عَتيقة.. وقفَ عندها، وتنهَّد:

ـ آهٍ أيَّتها الصَّبَّارة الوفية، كم انتظرتُ عندك حبيبتي التي تحبُّ ثمارِكِ الشَّهية.. كم ملأتْ أشواكك أصابعي، وأنا أتلذَّذ بمرأى الدَّم النازفِ منهَا بسببِ أشواكِكِ الحادَّة؛ كلُّ ذلك لأنَّ حبيبتي تحبُّ ثمارِكِ الشَّهية.. عناقيدك تشبهُ زهرة قماشيَّة ملوَّنة رائعة كانتْ تضعهَا حبيبتي على منديلها المُزركش.. كمْ جلسنا عند جذعك! وأسندتْ حبيبتي رأسهَا على صدري إلى أن رآنا ذاتَ مرَّةٍ أحدُ أولادِ الحيِّ فشهر بنا في أنحائهِ، وأخبر أسرتها، فأتى على الفور والدها وهو يركضُ كالمجنون مع أخويها.. عندكِ أيَّتها الصَّبَّارة رآنا الأبُ الغاضبُ الثائرُ فجُنَّ جنونه.. هربنا منهُ فأخذ يقتلعُ أقراصَ الصبَّار الكبيرةِ، ويقذفنا بها حتى امتلأتْ أجسادنا بالجُروح، وأنتِ يا حبيبتي سجدتِ على الأرض أمامَ والدكِ كي يسامحكِ فجرَّك بقسوةٍ، وعنفٍ وهو يشتمُ، ويزمجرُ.. أمَّا أنا فلحقني شقيقاك فتسلقتُ سياجَ أرضٍ مُجاورةٍ وكدتُ أن أسقط فلم أجدَ شيئاً أتعلقُ به إلا صبَّارة عريضَة تمسَّكتُ بها بشدَّة فدخلتْ أشواكها كلَّها في يديّ، ونزفتْ دماءً ساخنة غزيرة، سقطت قطراتها فوقَ حجارةِ الصَّبَّار عندها كانَ شقيقاك يضحكان بشماتةٍ، ويتوعَّدان، ثمَّ عادا أدراجهما.. لمْ أنمْ ليلتها، وأنا أضمِّدُ جراحيَ من جهةٍ، وأنزعُ الأشواكَ من جهةٍ أخرى.. لم أطقِ الانتظار وكانَ الليلُ طويلاً وفي الصَّباح طرقتُ بابَ المحبوبةِ، وعندَ العشيَّة أصبحتْ زوجتي، وكانَ الأهلُ يباركوننا، وأقام أخواهَا الدبكة، والأفراحَ حتى الصَّباح حيثُ كانتْ حبيبتي إلى جواري بعيداً عن الصَّبَّار وأشواكِه.. العجوزُ يتنهَّدُ من جديدٍ، ينظرُ حولهُ، يمسحُ عرقَ جبينه، ويبتسمُ بمحبَّةٍ، وفي الشارع أمامَهُ الذي لم يكنْ هكذا منذ زمنٍ يقفُ شابٌّ وشابَّة يضحكان بصوتٍ عالٍ وأيديهما مُتشابكة.. الشَّابَّة تشيرُ بيدها نحوهُ وتقولُ بصوتٍ مسموع:

ـ إنَّها شجرة صبَّارٍ؛ تعالَ نشتري من ذلكَ العجوز ثمرة لي وثمرة لك..

الشابُّ يضحكُ، ويقول:

ـ حسناً هيَّا تعالي.

يقتربان منَ العجوز، يطلبُ الشابُّ منه أن يبيعهُ ثماراً طازجة من الصَّبَّار.

يستغربُ العجوزُ؛ لكنه يستجيبُ، يقطفُ ثلاثَ صبَّاراتٍ من أعناقها، يفرشهَا أرضاً وينظفها من الأشواكِ بأعشابٍ برِّيَّةٍ ثمَّ يقشرهَا، ويقدِّم اثنتين منها على ورقةِ تينٍ كبيرة إلى الشَّابين اللذين يأكلانها بشهيَّة.. يمسك هو صبَّارتهُ يأكلها بهدوءٍ.. يمدُّ الشابُّ يدهُ إليه بالمال.. يُدهشُ العجوز، يرفعُ يدهُ قائلاً:

ـ لا يا بني لستُ بائعاً والصَّبَّارة ليست لي..

يشكرهُ الشابان، ويبتعدان.

العجوزُ يتابعُ تناولَ ثمرتهُ، يبتلعُ ما بقيَ منها.. يشعرُ بشيءٍ حادٍّ ومؤلمٍ يغزُّ لسانه.. يمدُّ لسانهُ، يعبثُ به بأصابعهِ من دُون فائدة لقد علقتْ به إحدى الأشواكُ عليه.. يبتسمُ العجوز ينظر نحوَ الصَّبَّارة، يقول لها:

ـ آهٍ منك حتى في شيخوختي أبيتِ إلا أن تؤلميني ورغمَ ذلك فإنَّ اليومَ لا يشبه الذي مضى فحبيبتي راقدة الآن تحتَ ترابٍ يشبهُ ترابكِ أيَّتها الصَّبَّارة، كبرتُ أنا وأنت سويَّاً أيَّتها الصبارة لكنَّك تزدادينَ قوة وحدَّة وأنا أزدادُ ضعفاً وهرماً.. نهضَ تاركاً المكان ودمعة مُتعبة فرَّت من عينيهِ الصَّغيرتين..

الشاعر والتاجر

أحمد ناصر

1

مقدمة

يُذكّر عنوانُ قصتي هذه بعناوين الأقاصيص التعليمية ـ الأمثولات. لكنها ليست كذلك، لسببٍ جوهري ـ خلوّها من أيّ رتوش خيالية، على أنني رسمتها بحبر دامغ، كثيف؛ أظنّه؛ سيرسّخها في أذهانكم النيّرة فترةً قد تطول، لتغدو كما الأمثولة..

2

ـ السلام عليكم، أبو سليمان!

التفت التاجر إليه:

ـ وعليكم السلام، يا شاعرنا، تفضل واجلس!

حطّ الشاعر على الكرسي الوحيد المجاور للتاجر نافخاً صدره، متطلعاً، عبر باب المتجر الواسع، إلى البعيد ـ البعيد بنظرات حادة وصارمة.

رفع التاجر عينيه عن دفتر «اليومية» وشمل الشاعر بنظرة متغطرسة، لكنه سرعان ما غلفها بغشاء من ابتسامته الخبيثة، الجاهزة مخفّفا من سطوتها:

ـ أهلا وسهلا!

كان عمال السوبر ماركت منهمكين في تلبية طلبات الزبائن.

ـ نصف كيلو شاي، كيلو حمص، معجون أسنان...

حرك التاجر أصبعه فوق أرقام الآلة الحاسبة:

ـ أربعمئة ليرة، يا أستاذ!

ـ كيلو قهوة، كيلو عدس مجروش، كيلو سكر. قال العامل الثاني لمعلمه مفنّدا السلع التي وضّبها لأحد الزبائن.

ـ ستمئة وعشرون ليرة!

بعد أن قبض التاجر المبلغ من الزبون، حوّل رأسه عن صندوق ماله، وقال بصوت رنان، من غير أن ينظر في وجه الشاعر الجسيم:

ـ ماذا لديك؟

ـ لك عندي ديوانٌ من الشعر الوهّاج.. ماذا أقول عنه؟ لو وضعته في كفة ميزانك لاستهلكت الكفة الثانية الأوزان الموجودة عندك كلها!..

ـ يا لطيف، يا لطيـ..فـ!

3

«.. لسان شاعرنا أطول وأعرض من دواوينه مجتمعة. وقد نُمي إليّ مديحُه إياي مرات ومرات.. ومَن لا يحب المديح؟! منذ قرون وقرون والشعراء تمدح أولي الأمر والسلاطين.. زمن الخلافة ولّى، وغدا التجار ورثتها.. ألا تستحق، يا أبا سليمان أن يقفَ شاعرٌ ببابك؟!.. لكنني مشغولٌ.. إن ألقمته المال بسرعة، أنقذ نفسي من شر إلقائه لقصائده العصماء، وهو، إن فعل، سيخرجني من طوري..»

ـ تقول إن ديوانك يفوق بضاعتي قيمة ووزناً، وتراهن على ذلك، وغاب عن ذهنك أن ميزاني مشغول دائماً، كما ترى.. ثم إن كل مَن في هذا المحل، سواء أكان عاملاً أو زبوناً، ليس لديه متسع من الوقت لمعاينة هذه المعادلة الظريفة والصعبة في آن.. يبدو ديوانك شبيهاً بذنوب كافر ـ قد ثقلت موازينه!!

ـ ها.. ها.. ها! ـ ضحك الشاعر ملء شدقيه ـ لو اتجهت، يا أبو سليمان، نحو الكتاب لزاحمتني على المنابر!

ـ قد أراحك الله من منافسة كهذه!

فتح أبو سليمان صندوقه. أخرج ورقة جديدة من فئة الألف. قعقع بها ثم قال:

ـ بكم النسخة من ديوانك، يا شاعرنا؟

ـ بمئتي ليرة..

ـ هاك ثمن خمسٍ من النسخ!

مدّ الشاعر يده لاستخراج النسخ.

ـ لا، لا يا شاعرنا، دعها، الآن، مرتاحة في كيسك، ستجد قرّاء كثيرين! محسوبك، كما ترى، يقرأ أبداً دواوينه الخاصة ـ وأشار بيده اليمنى إلى دفتر مبيعاته اليومية، وبيسراه شدّ على يد الشاعر مربّتاً ومانعاً إياه من استخراج الديوان.

دسّ الشاعر القطعة الورقية الجديدة في جيب سترته الداخلي، وفجأة نهض منتصباً بقامته المديدة ومنكبيه العريضين، ثم قال مودعاً:

ـ أدامك الله يا «أبو سليمان» يا راعي الأدب والأدباء!

ـ لديّ، يا شاعري، ديوانٌ نهاري وآخرُ ليلي ـ إنها أم سليمان. حكاياها لا تنتهي، منها المضحك والمبكي..

4

خرج الشاعر الجسيم، مديدُ القامة وهو يتطلّع من جديد إلى الأفق البعيد ـ البعيد، ذراعه اليمنى تتحسس وتتلمّس جيب سترته، مصغياً إلى حوارها الناعم مع ما تحويه، وفي يده اليسرى ما تزال نسخ الديوان تتأرجح..

هذا الحب

شعر : جاك بريفير
ترجمة : لطيفة ديب

هذا الحب
العنيف جدًا
الهش جدًا
الرقيق جدًا
اليائس جدًا
هذا الحب
الجميل مثل الصباح
والسيئ مثل الطقس
حينما يكون الطقس سيئًا
هذا الحب الحقيقي جدًا
هذا الحب الجميل جدًا
السعيد جدًا
الفرح جدًا
الهازئ جدًا
المرتجف خوفا كطفل في
العتمة
الواثق جدًا من نفسه
مثل رجل
هادئ وسط
الليل
هذا الحب الذي كان يبعث
الخوف عند الآخرين
الذي كان يجعلهم يتكلمون
الذي كان يجعلهم يشحبون
هذا الحب المرصود
لأننا كنا
نرصده
المطارد المجروح المُداس
المُجهز عليه المنُكر المنسي
لأننا كنا
نطارده نجرحه ندوسه
نجهز عليه ننكره ننساه
هذا الحب بأكمله
الذي ما يزال حياً
ومشرقًا تمامًا
إنه حبك
إنه حبي
إنه ذلك الذي كان
دائمًا ذلك الشيء
الجديد
والذي لم يتغير
الحقيقي جدًا مثل
نبتة
والمرتجف جدًا مثل
عصفور
الدافئ جدًا والحيّ جدًا
كما الصيف
نستطيع نحن الاثنين
أن نروح وأن نجيء
نستطيع أن ننسى
ومن ثم أن نعود للنوم

أن نستيقظ أن نتألم
أن نشيخ
وأن نعود للنوم مجددًا
وأن نحلم بالموت
وأن نسهر وأن نبتسم
وأن نضحك
وأن نعود للشباب مرة أخرى
وحبنا يظل هنا
عنيدًا مثل أتان
حياً مثل الرغبة
شرسًا مثل الذاكرة
أحمق مثل
الندم
رقيقًا مثل الذكرى
باردًا مثل الرخام
جميلاً مثل النهار
ضعيفًا مثل
طفل
إنه ينظر إلينا
مبتسمًا
ويكلمنا من دون
أن يقول شيئًا
وأنا أصغي
مرتجفًا
وأصرخ
أصرخ لأجلك
أصرخ لأجلي
أبتهل إليك
لأجلك ولأجلي
ولأجل كل أولئك الذين
يحبون
والذين أحبوا

أجل إني أضرع إليه
لأجلك ولأجلي
ولأجل الآخرين جميعًا
الذين لا أعرفهم
ابقَ هنا
هنا حيث أنت
وهناك حيث سابقًا كنت
ابقَ هنا
لا تتحرك
لا تذهب
فنحن الذين أحببنا
نسيناك
فلا تنسنا أنت
لم نكن نملك إلاك
فوق هذه الأرض
فلا تتركنا
نعود باردين
ومن أبعد مكان
دائمًا
وأينما كنت
أعطنا علامة حياة
ومهما تأخر الوقت
في زاوية حطبة
في غابة
الذاكرة
انتفضْ فجأة
مدَّ لنا يدك
و نجّنا.

جمال أبو جهجاه قال كلمته.. ومضى

حسني هلال

في عينيه رفيف، لفراشات أحلامٍ وآمالٍ وآلام..
على كفيّه، وشمٌ لمعولٍ وقلم..
في قلبه ينبض الوطن خيراً وعدلاً وحبّاً وجمالاً..
وعلى لسانه يلهج التوفيق..
«الله يوفقك»..

إنها جملته الأشهر، مشافهة لدى التقائه.. على الهاتف أو مكاتبة. وهل هناك ما يجاري توفيق الله، لاسيما إذا كان الداعي صديقاً محبّاً، وقبل ذلك ومعه وبعده رجلاً مؤمناً؟

موفق، لعله، من اهتدى فآمن؛ فثقفه الإيمان وكان جاهلاً.. وأكثر توفيقاً، من اجتمعت جوارحه على نغمة الإيمان ونعمة العلم؛ فعندئذ لا خوف عليه وأمثاله، ولا هم يحزنون. فعلى مَنْ يحزنون وهم يؤمنون بأنهم مع مَنْ لهم، إليه راجعون؟

وعلامَ يحزنون وهم يعلمون أن كل ما بأيديهم وبأيدي سواهم من متاع الدنيا، لا يغنيهم – إن لم يبلهم – شيئاً عن ثواب الآخرة؟

الطوابق السفلى

التقينا أول مرة «جمال» وأنا، على هامش محاضرة له عن تاريخ مدينة «شهبا» وآثارها. المدينة التي استقبل هواؤها صرخته الأولى، حضنت دروبها حبو طفولته، رعت معارفها نمو عمره ونشاطه، وبقيت حتى النفس الأخير مثار جلّ كتاباته ومسرحها.

تعارفنا حينذاك.. تهادينا الكتب.. تبادلنا الاهتمامات والهموم.. وتعاهدنا على التواصل ومتابعة التثاقف ومعاقرة المتاعب اللذيذة قراءة وكتابة وتحقيقاً، وتنقيباً عن جواهر الحِكَم والمعاني في التراث والفلكلور.

تتالت بعدئذ لقاءاتنا؛ حيث عرفت في الأستاذ «جمال أبو جهجاه» معلماً مربياً.. كاتباً مجدّاً وباحثاً دؤوباً لا تثنيه العثرات ولا الصعاب في سبيل خدمة بلده وناسه. لاسيما منهم، شاغلي الطوابق السفلى من عمارة المجتمع.

لأنه الوطن

من الكتب التي أهدانيها الأستاذ «أبو جهجاه» كتاب «سلطان الأطرش» الذي يُهديه الكاتب إلى كل ما يشاكل «أناه» ، يشابهها، يعاضدها، ويكاملها من «أناوات»:

إلى كل أنا تبتعد عن أنانيتها وفرديتها.
إلى الأنا التي تذوب في المجتمع، تحمل آهاته، ومعاناته.
الأنا التي تحمل هَمَّ الوطن..
الأنا في انتمائها الإنساني..
إلى كل أنا تسعى لمعرفة الذات..
كل أنا تتعطش إلى عمل الخير وتسعى إليه. بلا إحصاء أو حساب.
إلى الأنا التي رفضت مغريات الدنيا أمام الآخرة، ولم تقبل بالمكاسب الفردية أمام المكاسب الوطنية.

وكتاب «شهبا» الذي جاء في مقدمته:

... وحين يكون مكان الولادة هو المكان ذاته الذي نعيش فيه ونحيا، فيصبح وطناً ننتمي إليه، وكياناً لشخصنا؛ بل جزءاً من عاطفتنا، يزداد الحنين إليه إذا ابتعدنا عنه، ويشتد الشوق إن هجرناه، فنتغنى به، وندافع عنه ونموت من أجله لأنه الوطن؛ فهو منّا ونحن منه...

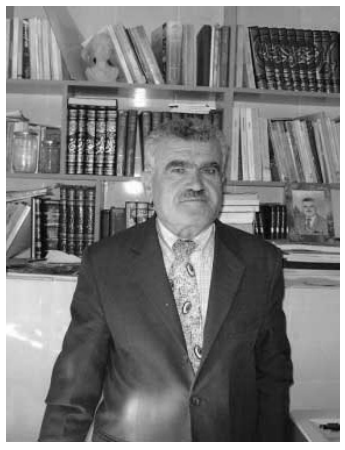
جمال أبو جهجاه

قبل أن يمضي

لقد عاش الوطن في صلب همّ أبـي جهجاه واهتمامه، وذلك ما عبّر عنه قـراءة وكتابة.. قولاً وعملاً، بل حياة وموتاً. حيث وافاه الأجل، على طاولة النقاش يوم الثلاثاء الماضي 2013/3/5م، بعد أن قرأ كلمته في السويداء في المؤتمر الفرعي التشاوري، على طريق «الـحـوار الوطني» المزمع عـقـده، مـن أجـل إخـراج سـوريـة مـن محنتها الراهنة، الرابضة على صدر حرِّ ترابها وحرائر وأحرار شعبها.

لقد أكد «جمال أبو جهجاه» في كلمته قبل أن يمضي بدقائق، على وجوب وقف الاقتتال ونشر ثقافة الحوار، وبدء التحاور تحت سقف خير الوطن والمواطن من أجل حياة حرّة كريمة وسعيدة.

ختاماً، أراني مدفوعاً لتقديم العزاء، لنفسي أولاً، بصديق صادق وحنون.. للأسرة التعليمية الكبيرة في وطننا الكبير.. لجمعية العاديات.. لجمعية الرعاية الاجتماعية.. لاتحاد الكتاب العرب. وقبل ذلك لأسرته الصغيرة، خصوصاً ابنه الروحي. الذي مني بفراق جمال مرتين:

في الأولى كان هو المُفارق،

أما في الثانية فكان أبو وليم جمال. الذي لن أرثيه ولن أبكيه ولن أقول له وداعاً، بل سأغبطه على حياته وعلى مماته وأقول له: إلى لقاء!

صدر للمرحوم جمال أبو جهجاه

شهبا مدينة الحضارة.

سلطان الأطـرش: باعث الفكر الثوري والشعور القومي.

هنّ النعيم وهنّ الجحيم .

أبو العلاء والعقل النقدي.

قيد الطباعة

رواية «زَهْر، حقيقة في الشهادة واقعية في الكفاح والنضال».

من أقواله في المرأة

ليست المرأة نصف المجتمع عدداً فحسب، إنما هي المجتمع كله لأنها مصدر طاقاته الروحية، في الإلهام، والإبداع، وفي الحب والخير والجمال.

بطاقته

جمال حسن أبو جهجاه. مواليد محافظة السويداء – مدينة شهبا – عام 1946.

تخرج في معهد المدرسين، ونال إجازة في الأدب العربي في جامعة دمشق عام 1986.

تقاعد عن التدريس عام 2005 ليتفرغ للبحث والتأليف.

وقد وجّه محافظ السويداء بتسمية القاعة التي توفي فيها الراحل «جمال أبو جهجاه» باسمه تكريماً له وتقديراً لعطائه وبذله.

في رثاء المؤلف الراحِل أحمد الخوص

أحمد عادل

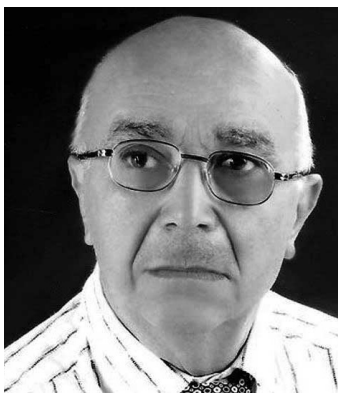
أحمد الخوص

لَعِبَت نشأة النحوِ دوراً كبيراً في حياة الثقافة العربيّة بمجمل جوانبها، وعلى الرغم من أن النحو كان قد بدأ منذ القرن الهجري الأوّل؛ إلاّ أن ذلك ضعف وتراجع في عقود القرن العشرين حين بدأ التعليم يتسعُ، وهـذا ما يجعل المفارقة غريبة الشكل والمضمون، وذلـك بسبب التراجع بدل التقدم، ولاسيما أن القاعدة النحوية قد أكملت جوانبها منذ أكثر من ألفِ عام، حينما كان أُدباء الأُمة ينتبهون إلى خطر الجهل واللحنِ في العاصمتين الخالدتينِ البصرة والكوفة، وعلى الأكثر أن اللّحن في اللغة كان ينتشر في البصرة وما جاورها أكثر مما كان ينتشر في الكوفة ذات القبائل العربية العريقة، وهي التي كانت تتقنُ الفصاحةَ تلقائياً، فأدى ذلك إلى السبق في كشف الأخطاء اللغوية من جانب المكيِّين المقيمين في البصرةِ، ثّم تطوّر الأمرُ إلى أن تشغل المسألة النحوية مزيداً من الأدباء والمتعلمين، وتشكّل بذلك تجمع مُدهش من عُلماء النحو في المدينتينِ الخالدتين الكوفة والبصرة، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحدّ وحسب، وإنما جاءَتْ المدرسة الثالثة المعروفة بالمدرسة البغدادية.

وعبقرية المؤلف أحمد الخوص تكمن في أنّه من القلائل المنتبهين إلى ضعف اللغة العربية في أماكن متعددة من الوطن العربي، ولذلك وجد أن الحلّ الأنسب هو تدريس اللغة تدريساً صحيحاً منذ البداية. وبهذا التفكير السليم جاءَت كُتبه بطريقة علمية تناسب الكبار والصغار في الآن ذاتهِ. وبهذا التفكير السليم أيضاً، ذكرنا بنباهة من تنبهوا إلى الأخطاء اللغوية في سنوات سبقت المرحلة الأموية، فجاءَت نتيجتها نشأة النحو، فأكمِلَ وتكامل بفضل عُلماء قصّرْنا في إيجاد أمثالهم مرّةً أُخرى.

كَتب الخوصُ، وهو في وضعٍ صحيٍّ مُتعبٍ، مجموعة كبيرة من الكتب التعليمية في النحو والبحور وجوانبِ اللغة بأساليب متطورةٍ ومبتكرة لم يسبقه إليها أحدٌ. ولأن ما كتبه الخوصُ بهذهِ الأهمية، كانَ له الانتشار الواسع في سورية وفي الوطن العربي، فسمعت أن إحدى الدول المغربيّة أدرجت في مناهجها التعليميّة البعض من كُتبه، فيما كان يحاول الحصول على عضوية في اتحاد الكتاب العرب فيقبل الطلب بعد مناقشاتٍ «كما سمعت» لأن كُتب الخوص تعليميّة لا تدخل في منهج الاتحاد وبرنامجهِ، وإنّها عند الحقيقةِ والنظر العلمي إليها تدخل في صلب الموضوع الأدبي لسببين رئيسيين: أولهما, النحو الذي أسسَّ تأسيساً جيداً للآداب العربيّة، بمجملها، والثاني هو بلاغة اللغة العربية وقد حضرت حضوراً بارزاً في خطابات ومناقشات الأُدباء وعُلماء اللغةِ في القرن الأوّل والثاني للهجرة، وما جاءَ بعدهما من قرونٍ كثيرةٍ، وصل أخرها إلى زمنِ الأكاديميات، فكانت اللغةِ والبلاغة تشكلانِ حضورهما المتميّز، ولذلك مُنِحَت بموجبهما شهادات عالية بدءًا بالماجستير وانتهاءً بالدكتوراه.

في عقد التسعينياتِ حضرتُ أمسية ثقافية كان متحدثها الأوّل الأديب الراحِل مَدْحة عكاش. وكان المداخل الأوّل أحمد خوص. وإن حُزني يتجلّد حينما أجد الذاكرة تخونني في تذكّر الموضوع ومناسبة الأمسية، لكنني أميل إلى الظنّ بأنّها تخص إنتاج الخوص، ولذلك حصلت النوادر بين المتحدث والمداخل، وكان أحمد ضمنها في موقع الرثاءِ والأسفِ بسببِ وضعهِ الفيزيولوجي المحُزنِ، وهو مع ذلك أكبر من الكلام المتلعثم، وأجمل من العوائِق ومصائب الجسدِ؛ حيث إنه وبكل ما عاش من المشاكل الصحيّة، تمكن من أن يبني عالمه الثقافي العلمي، وهو بذلك ذكرنا بعظمة أبي علاء المعري، وطه حسين، وبالعديد من الذين أنتجوا على الرغم من المعاناة ومشاكل الجسدِ الكبيرة كتلك التي عاشها أبو علاء بعماه الدائم، وهو الذي تكَرر عند عبقري القرن العشرين طه حسين؛ وأما الذين أبدعوا في الفنّ، وهم على أوضاع صحيةٍ متشابهةٍ مع أوضاع الخوص، فقد كانوا كثيرين، ولا أكون صاحبَ فضلٍ حينما أذكّر المطرب الراحِل داخِل الأعمى، وهو صاحبُ صوتٍ إنسانيٍّ مدهشٍ، وله قصةٌ عاطفية موجعة، وإن داخل الأعمى بالإضافة إلى عماه كان مُبتلى بمشاكل صحية عجزت عن أن توقف جمال صوته، وأنّها لا تستطيع أيضاً أن تمنع التخليد لصاحب الصوت الموجَعْ المُستضام. وهذا هو ما حدث للخوص في مصائبهِ الصحية الدائمة، لقد كتب وظلّ يكتب إلى أن أصبح مؤلِفاً قديراً لا تستطيع الأقلام أن تنكر جهده، ولا تنكر فضله، وإننا إذ نتذكّر المبدعينَ والمؤلفين، لا نقوم إلاّ بواجبنا الإنساني والأخلاقي. وهذا ما حصل للكتاب والشعراء حينما فقدوا زملاءهم وأحباءهم، لا في عصرنا الراهن وحسب، وإنّما في عصور قديمةٍ عربيّة، وغير عربية ولهذا السبب أختتم هذهِ المقالة بأبياتٍ رثائيةٍ لبشار بن برد، وهو كان قد يرثى زميلاً له «وَدّع الحياةِ بشكلٍ وآخرْ!»:

اشربْ على تَلفِ الأحبَّةِ إننا
جُزُرُ المنيةِ ظاعنين وخُفَّضًا 1
ويلي عليه وويلتى من بَيْنِهِ
كان المحُبَّ وكُنتُ حبًّا فانقضى
قد ذقتُ أُلفته وذقتُ فراقه
فوجدتُ ذا عَسَلاً وذا جَمْرَ الغَضَا

1- جُزر: جمع جزور هو الذبيح من الإبل. الظاعنين هم السائرين، خُفَّضاً جمع خافض وهو مقيم ولا راحل

الجامعة العربية ... إلى أين؟ /نتمة/

قال الرئيس الأمريكي الأسبق (جيمي كارتر) ذات يوم، ومما قاله: «إن أي محاولة تقوم بها أي قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج العربي سوف ينظر إليها على أنها هجوم على المصالح الحيوية لأمريكا وسيصد هذا الهجوم بالوسائل اللازمة كلها بما في ذلك القوة العسكرية». لهذا صرنا ندرك لماذا وجدت قاعدة (العيديد) الأمريكية في قطر؟!

ويبدو لي أن التعاون الصهيوني العربي التركي برعاية أمريكية/غربية ضد محور دول المقاومة عامة وسورية خاصة لم يعد خافياً على أحد بدليل الإشارات الكثيرة. فحكومات بعض الدول العربية وتركيا تَتْبع أمريكا تبعية مطلقة؛ وأمريكا والعدو الصهيوني وجهان لعملة واحدة والمثل يقول: صديق عدوك عدو لك. لهذا وقف وزير خارجية تركيا (أحمد داود أوغلو) في افتتاح القمة المذكورة مؤيداً إسقاط الدولة السورية بكل السبل وداعماً توجه الجامعة العربية بالذهاب إلى الأمم المتحدة، وهو الذي ابتهج بعودة العلاقات بين بلاده ودولة [إسرائيل] بعد انقطاع محدود، ونسي الدماء التركية التي أزهقها الصهاينة على أرض سفينة مرمرة التي حاولت كسر الحصار الصهيوني عن قطاع غزة.

ولعل من أبرز تلك الإشارات ما يرتبط بمهمة المبعوث الأممي (الأخضر الإبراهيمي)، وهو ممثل خاص مشترك للأمم المتحدة والجامعة العربية ... فما أقدمت عليه الجامعة من انحيازها إلى طرف من إئتلاف الدوحة يلغي مهمته بالكامل إذ لم يعد وسيطاً بين المتخاصمين؛ ولا سيما حين سارعت الجمعية العامة للأمم المتحدة مرحبة بقرار القمة العربية... وهي بهذا كله - تستهدف - هي الأخرى - الدولة السورية قيادة وشعباً؛ وتعمد إلى إنهاء وجودها مخالفة ميثاق الأمم المتحدة ذاته، وتقف على قدم المساواة مع أمريكا وقطر والسعودية وتركيا ودولة الكيان في العداء لسورية، على حين تحرص على دعوة ملك البحرين إلى الحوار مع المعارضة فأي شيء أغرب من هذا؟!!...

هكذا قامت الجامعة العربية بقيادة نبيل العربي بغطاء سياسي وقانوني لتمرير ذلك التعاون، ومن ثم أخذت تُشَرْعِن التدخل في الشؤون الداخلية لسورية، وبخاصة عندما أعلنت القمة الرابعة والعشرون بكل صفاقة عن ترك الحرية للدول العربية لدعم المعارضة المتطرفة بالمال والسلاح وبالآلية التي تراها مناسبة لذلك... ثم تبنت نقل ملف الأزمة السورية إلى مجلس الأمن لإعطاء مقعد سورية إلى تلك المعارضة؛

وحين خيب رئيس مجلس الأمن للشهر الرابع (2013م) آمال القمة العربية ورغبة أعداء سورية حين أعلن أن بشار الجعفري هو الممثل الشرعي للدولة السورية فإن قطر العظمى وتركيا بدأتا تتوجهان نحو ما يعرف بمنظمة التعاون الإسلامي لإقناعها بتسليم المقعد لائتلاف الدوحة...

وفي ضوء ذلك كله نتساءل: إلى أين تسير الجامعة العربية بعد أن أضحت ألعوبة بيد الدوائر الأمريكية/ الغربية والصهيونية وحلفائها وبخاصة أمير ملوك الطوائف؟ ألا يعني أن الجامعة نفسها ستصبح أثراً بعد عين حين تغدو دولة الكيان أقرب إليها من سورية؟!! فإذا كانت الجامعة قد غدت وسيلة لتحقيق المآرب الصهيونية/ الأمريكية بوساطة ممتهني السياسة المزورة فهل سيبقى هنالك جامعة؟ ألم تستفد الجامعة من الدروس التاريخية التي مرت بها وبالمنظمات الإقليمية الأخرى؟ ألم تعِ آراء المفكرين كالأرسوزي - مثلاً - الذي أجاب فيه سائله عن عمل الجامعة قبل ستين سنة قائلاً: «لم تقم بالمهمة التي كان العرب يرجون من قيامها... الجامعة مع الأسف دون ما هي عليه بين دول أوربا الغربية ذات الأصول المتباينة واللغات والأديان المختلفة»؟!!.

هذا ما نضعه برسم الأمة كلها مثبتين ما قاله وزير خارجية أمريكا إبان رئاسة (آيزنهاور) لوزير خارجية الكيان الصهيوني (آبا إيبان) آنذاك: «إن الولايات المتحدة لا تتصرف بوحي لحظة عابرة، أو بإيحاء اتصالات تقوم بها [إسرائيل] أو أصدقاؤها وإنما تتصرف وفق سياسة جديدة رسمتها للمنطقة، وهي مصممة على تنفيذها»... فلعل هذا الكلام يثقب أذني الأمين العام للجامعة السيد نبيل العربي، متمنين عليه أن يعود إلى ما يفرضه عليه واجب انتمائه إلى أمته العربية، قبل أن تقع الفاس في الراس!!!.

ثقافة الأطفال.. أهميتها، وسائطها، ومشكلاتها /نتمة/

مجال ثقافة الطفل، أهمها الكمبيوتر والانترنت. ولوسائل الإعلام عموماً، كمنظومة واسعة لنقل الثقافة، دورٌ هام في صياغة مفاهيم ثقافية حديثة في حياة الطفل، من خلال التوجُّه التربوي السليم، وممارسة دور نشط في هذا المجال، وبالتالي التأسيس لشخصية طفلية متوازنة. هذه الحقيقة يجب ألا تغيب عن أذهاننا؛ مربيّن وتربويين وآباء.

خصائص وسائط ثقافة الأطفال:

تجدر الإشارة بدايةً إلى اختلاف خصائص كل وسيط ثقافي عن غيره؛ بحسب طبيعة الوسيط نفسه. إلا أنها تشترك جميعاً في مجموعة خصائص؛ لعل أهمها على الإطلاق: مراعاتها متطلبات نموِّ الأطفال، في كل مرحلة عمرية، ومن مختلف الجوانب، الإدراكية والعاطفية والاجتماعية، وتوافقها -شكلاً ومضموناً- مع ميولهم ودوافعهم، والاستجابة لرغباتهم واحتياجاتهم في الاطلاع والتعبير والإبداع.

ثم أن تتَّصف بالمقدرة على الإثارة والتشويق، والتسلية والإمتاع، بحيث تتمكَّن من الولوج إلى أعماق الطفل، وتحرِّك أحاسيسه وانفعالاته. وأن تتنوَّع هذه الوسائط، فلا تقتصر على وسائط معيَّنة بذاتها. وتتنوَّع موادها وأساليبها، بما يجعلها مهوىً لقلوب الأطفال، ومصدراً لتفاعلهم وتنمية قدراتهم. ولكي تؤدي هذه الوسائط دورها المطلوب في تربية الأطفال، وتحقِّق الأهداف المرجوَّة، ينبغي التوجُّه بها توجّهاً جاداً، عبر ما تطرحه من موادَّ متنوّعة. كما تحتاج بصورة مستمرة إلى تطويرها، وربطها بآخر معطيات الحداثة، وإحاطتها بكل أسباب التشويق والجاذبية. حيث لم يعد ممكناً اليوم اختصار المسألة الثقافية للطفل بالكتاب أو بطريقة صنعه؛ بل غدت أشمل وأعمق من ذلك بكثير، وقد أشار لذلك «أحمد فضل شبلول» بقوله: «لم يعد أمرُ ثقافة الأطفال مقصوراً على طريقة صنع الكتاب بشكل يجذب إليه الطفل، أو على اختيار النصّ الشعري، أو الحكاية أو القصة المناسبة له، ولم يعد الأمر مقصوراً كذلك على مناقشة تقديم ما هو غير ناطق من حيوان أو طير بطريقة ناطقة، لقد جلب التطوّر التكنولوجي والالكتروني معه أشكالاً وأفكاراً ومشاكل جديدة لأطفالنا، وينبغي على صانعي ثقافتهم الجديدة استيعابها أوّلاً، ثم طرح مضامين جديدة تناسب هذه الأشكال».

الأسرة وثقافة الأطفال:

كثيرةٌ هي المؤسسات التي ينهل منها الطفل ثقافته، أو التي تقوم برعايته ثقافياً، أولها الأسرة، ثم المدرسة؛ فالرفاق، ووسائل الإعلام، إضافة إلى الجمعيات والأندية الثقافية. إلا أنه وعلى الرغم من التطورات الحديثة في مجالات التقانة ووسائل الاتصال؛ التي أثبت أن العملية الثقافية لم تعد مقتصرة على الأسرة أو المدرسة. وأنها أصبحت تشاركية؛ تتعاون فيها مؤسساتٌ تربوية وإعلامية متعدِّدة، تظلُّ الأسرة المعين الأول لثقافة الطفل، وتبقى التربية الثقافية إحدى أهم جوانب اهتمام الأسرة بالطفل. وتلعب ثقافة الوالدين بشكل خاص دوراً رئيسياً في توجيه الطفل ثقافياً، وإكسابه المفاهيم والعادات والأساليب السليمة التي تضعه على الطريق الصحيح. والمؤكَّد أنه كلَّما بكّرَ الوالدان في تثقيف أطفالهما، وعملا على إثراء خبراتهم بمختلف الأساليب والوسائل، كان استعدادهم للتعلّم والتثقّف أفضل وأيسر. تكمن البداية في العناية بغرس حبّ القراءة في نفس الطفل، لأنها مسألة بالغة الأهمية لتنمية ثقافة الأطفال، وفتح الأبواب واسعةً أمامهم نحو المعرفة والارتقاء.

ومن أهم المهام الملقاة على عاتق الأسرة؛ لتنمية شخصية الطفل ثقافياً: أن يكون الكتاب أهم الموجودات في محيط الأسرة، وأن يكون تواصل الأطفال مستمراً مع صحفهم ومسرحهم، والبرامج الثقافية المقدَّمة لهم. ومن الضروري المناقشة والحوار مع الأطفال أنفسهم، لتحقيق أفضل النتائج في الوصول إلى القنوات الثقافية المتاحة وأسلوب اختيارها من جهة، ولتنشيط قدراتهم اللغوية والعقلية من جهة أخرى. وضمن إطار الثقافة الطفلية؛ يعدُّ أدب الأطفال الدعامة الأساسيَّة في بناء ثقافة الطفل، ويتصدَّر القنوات التي تزوِّده بالقيم والأفكار المرغوبة، وتتيح له فرص التعبير والمشاركة، وتوفِّر له التسلية والمتعة. والمعلوم أنه كلَّما كانت المادَّة الأدبية غنيَّة بأهدافها وقِيمها، وجذّابة بأسلوبها وطريقتها، ومراعية لطبيعة الجنس الأدبي الفنية؛ كانت أكثر تحقيقاً لأهدافها وغاياتها. تتمثَّل فنون أدب الأطفال في القصة والشعر والمسرحيّة والمقالة والرواية، وتتمتَّع بخصائص ومميِّزات؛ تختلف عمّا هي عليه في أدب الراشدين؛ إذ تُراعى في نتاجاتها؛ اعتبارات تربوية ونفسية وفنية؛ عامةً وخاصة. لذا كان من أهم مهام الأسرة، إتاحة نتاج أدبي ذي قيمة، والإلمام باعتبارات تقديمه للأطفال، بما يساعد في تحقيق الأهداف بالصورة المطلوبة.

مشكلات ثقافة الأطفال، وأبرز تحدياتها:

إن من أهم عوائق ثقافة الأطفال ومشكلاتها في المجتمعات العربية، أنها لا تزال تعاني من انخفاض مستوى نوعية المنتج الثقافي والأدبي الموجَّه للطفل كمّاً ونوعاً؛ في الأعم الأغلب، مما يؤدي إلى تأخّرها عن مسيرة الشعوب الأخرى في هذا المجال، والأسباب كثيرةٌ. فما تزال الأشكال الثقافية المقدَّمة للطفل؛ تكرِّس ثقافة الذاكرة، وتُغيِّب ثقافة الإبداع، وترزح تحت وطأة التنظير والتأديب، وما زلنا نمارس في أساليبنا الثقافية اللهجة الخطابية والإنشائية، ونعتمد التوجّيه المباشر في معظم القنوات التي نتوجَّه بها لأطفالنا، مبتعدين عن معايير حقيقية للنهوض والارتقاء بها. كما لا تزال المكتبة العربية فقيرةً جداً بنتاجات أشكال أدب الأطفال عموماً، وتعاني نقصاً كبيراً في جميع ما يتعلَّق بالطفولة، ومازالت تجاربنا في ميدان هذا الجنس الأدبي -الذي قطعت فيه الشعوب أشواطاً كبيرة- محدودة للغاية، حتى في إطار النقل والترجمة.

إن ما تحتاج إليه ثقافة الطفل العربي وعيٌ وإدراك كبيران بأهمية اعتمادها كمشروع حضاري، نجني من ثماره غداً أو بعد غد كل نضِج وطيب. من خلال الإرادات الواعية لأهمية هذا المشروع، وتضافر جهود كلِّ القائمين على العملية التربوية الثقافية، بما يرفع سوية ما يقدَّم للطفل ويوجَّه إليه، ويعمل على تنشيط المؤسسات المتخصِّصة بثقافة الأطفال، لخلق حركة فاعلة على الأصعدة كافة. ثم السعي إلى تطوير أدوات الطفل الثقافية، والبحث عن جديدةٍ منها؛ بهدف توسيع أفقه، وإيقاظ حواسّه. إضافة إلى الحاجة لتوظيف التقنيات الحديثة لخدمة هذا المشروع، وتصميم برامج ثقافية وتربوية وتعليمية تراعي بيئة الطفل العربي، وقيم مجتمعه وعاداته. ومن جهة أخرى الاهتمام الحقيقي الجادّ بأدب الأطفال بأنواعه أشكاله كافة، وتشجيع العمل في مضماره، وخلق الإرادات القادرة على اعتماده كمنهج أساسي في العمل الثقافي من خلال: تشجيع الأدباء الكتّاب على الاشتغال في هذا الحقل، ومساعدتهم على امتلاك المعرفة بشروطه وأساليبه، وإنشاء حوافز معنوية ومادية، تحثُّهم على الكتابة للأطفال والتفرُّغ لها. واستغلال الأدب الشعبي -كمصدر هام لهذا النوع من الأدب- والاعتراف بدور التراث في ربط الطفل بثقافته، واستلهام الملائم منه بعد تنقيحه، وبثِّ الروح الجديدة فيه. والاهتمام بجوانبه الأخرى -غير الحكايات- كالأقاصيص والأمثال والأحاجي الشعبية وغيرها. والاهتمام بالإصدارات التي تعنى بهذا الأدب، وتشجيع الدوريات الثقافية لإصدار أعداد خاصة تتناول أدب الطفولة، أو ملحقات لها تتوجَّه للأطفال. أو تخصِّص صفحات مناسبة وملوَّنة لهم. بما يدفع لخطوات راسخة، توصِلنا لمستوى مناسب في هذا المجال، يوازي أهمية مرحلة الطفولة، ويلبي متطلبات الارتقاء بنمو الطفل على مختلف الأصعدة.

هل يعود إلى المقامات ألقها؟.. قراءة في مقامات الدكتور غازي طليمات /تتمة/

أن يقْفُلَ راجعاً من حيث أتى، ولكن القوم اعتلقوه وأمطروه باللوم قائلين له: «كلا لا مفرَّ ولا وزَر. ستسمعنا كما سمعتَ عمر. قلت: أنشدوا أتسمّعْ، وغرّدوا أتمتَّع، فأنشدوا وغرّدوا، وامتعوا بما ردّدوا.

قالوا: من أجدبَ انتَجعَ، ونفع بما انتفع، ولحماةَ على حمص حقُّ الجوار. قلت: أنا سيّار بن عيّار، أصيفُ في دار، وأشتو في دار، لأتسقَّطَ الأخبار، وأتلقّط الأشعار. قالوا: هاتِ مما تسقّطت، وأسمعنا مما تلقّطتَ. قلت زار حمصيٌّ مدينة أبي الفداء، فتحلّق حوله الشعراء، وحاوروه وعزّوه في الحوار، ليستفزّوه للشجار، فحار كيف يتخلّص، وحاول أن يتملّص، ثم قال بعدما تمطّط وتقلّص:

قالوا: حماةُ حماـ
ـص وهل تُكِنّ الحبَّ كَنّةْ؟
هذي تكيد، وذي تردّ
الكيد منطلق الأعنّه
فأجبتُ: لا، بل توأما
ن تساقيا نُسْغَ الأجنَّة
كلتاهما رضعتْ من الـ
ـعاصي فعاشت مر فهنَّه
عشقته بنت ابن الوليـ
ـد فجاورته مطمئنّه
وحماة قد شقَّت له
في قلبها قلباً أَجنَّه
أحماةُ، هل لي في حِما
ك، وقد أطعتُ هواك، جُنَّه
آوي إليك، كما أوى الـ
ـعاصي، فصار ثراك جنَّه
وجَبَاك ما أحبوك حيـ
ـن كساك نضرته وفنّه
قالت – وقد بسطت جنا
حيها -: نعم، وبغير منَّه

البعد العَجاري: وتعكسه مقامته التي أطلق عليها اسم «المقامة الطللية». وهي في حقيقتها بكاء على مسارح الجمال الذي وهبه الله تعالى – الطبيعة، ولكنّ يد الجشع والطمع وعبادة الدرهم والدينار، وانعدام الحسّ بجمال الطبيعة الأخّاذ، جعل «تتار التحّار» يزحفون بالبناء المتطاول، وعلب الكبريت التي يسمونها بيوتاً، وذلك على حساب الطبيعة الخلابة، والمياه الدفاقة، والأشجار المحلّقة، فوق المياه المترقوقة. يصف سيّار بن عيّار ما حصل لأماكن النُّزهة والاستمتاع بالجمال فقال:

«من نصف قرنٍ من الزمان كانت الغُوطة المفضية إلى الدبلان، أنـزَه من بستانٍ في نيسان، يهديها العاصي ساقية من الماء كأنّه الّلجين في الصفاء. وعلى جانبي الساقية، تشمخ أشجار عالية، وتنساح ظلال غافية. وتحت الشجر المحلّق، وفوق الماء المترقرق، تنحني قناطر كخصور الحَوَر، ركعت لله فتحولت إلى جسور.

قلت: عافاك الله، أين ذهب كلُّ هذا الجمال، ولماذا تصفه وصفَ مَنْ يقف على الأطلال؟ لقد غزا الغوطةَ صنفٌ من تتار التجّار، يكره الجمال والأشجار، ويعشق المال والأحجار، فغيض الماء، ورفع البناء، وتحوَّلت الساقية إلى قبور، دُفنت فيها خُصور الحور.

قلت: لماذا لا تعاقب الشرطةُ المخالفَ من المشاة، كما تعاقبُ المخالفةَ من السيّارات؟ قال: فطرتنا أن نحسِنَ في البداية، ونسيء في النهاية، فيؤول البنيان إلى خراب قبل أن يرسخ، والعمران إلى يباب قبل أن يشمخ. ومن يحاسبُ ويعاقب إذا تغافل المحاسب، وتعامى المراقب؟ ألا ترى كيف اجتاح الجشعُ الوجائب؟

لقد اكتُسِحت حدائق الدور والقصور، وبُنيت فيها دكاكينُ كالجحور، يفوحُ منها البخار والقتار (الدخان)، بعدما كانت تتضوّع فيها الأزهار، ألا إنّ التجّار هم الفجّار».19

يستطيع قارئ هذه المقامات أن يقف على البناء الهيكلي العام لكلٍّ منها، والأسس الفنية التي اتكأت عليها. فمن جهة الهيكل العام يلاحظ الدارس أنها قائمة على حكاية يسردها راوٍ هو حبيب ابن لبيب على لسان بطل هو سيّار بن عيّار، وهي تعالج قضيّة اجتماعية، أو أخلاقية، أو علميّة، أو ثقافية، أو اقتصادية....

وتنتهي البنية الخارجية للمقاومة ببضعة أبيات من الشعر تمثّل إيجازاً للمشهد أو للموضوع المعالج.

أما على المستوى الفني فيمكننا أن نلحظ جملة من الخصائص الفنية التي تسم هذه المقامات.

تقنية السرد القصصي الموجز: كانت هذه السمة هي الغالبة على المقامات، ذلك أنّها نأت عن التطويل في السرد القصصي، واعتمدت على العرض السريع للأحداث، وعدم الجري وراء التفاصيل التي قد تبتعد بالقارئ عن متابعة الحدث وتناميه.

أسعف تلك التقنية الموجزة في السرد جملٌ قصيرة متتابعة متدفقة تغلب عليها الأفعال وتقل الجمل الاسمية، ومعلوم أن الجمل الفعلية هي الأكثر قدرة على نقل الحدث وتصويره.

اللغة التصويرية الساخرة.

المعجم اللغوي الثّر.

الإيقاع القائم الذي تحققه أمور منها: 1. قصر الجمل 2. السجع 3. لزوم ما لا يلزم في أواخر الحروف من فواصل، حتى إنه ليلتزم في بعض الأحيان ثلاثة أحرف، وهذا ما يذكرنا بلزوميات المعري. من أمثلة ذلك: «ورنَّق على محيّاه كدَرُ المقت، ثم انتقل منه إليَّ المقت، مع مرور الوقت». وقوله: «وأنا، منذ خلقت، نحيلٌ نحيف، وزني طفيف، وحملي خفيف20)).

وقوله: ((من إبداعها اللطيف أثقّفُ فأتثقّف، ومن إمتاعها الشريف أرشف، فأتعفّف».21

ويعضد ذلك لغةٌ تعيد إلى فن المقامة ألَقَه، وتوظيفٌ ناجح لمعجم لغوي دفّاق تتمسَّك الكلمة فيه بتلابيب أختها وتتراص في تركيب لغوي لا أثر فيه للتصنّع والاجتلاب من خارج السياق، فإذا جاء النص القرآني جاء في حاقّ موضعه، وإن احتاج السياق إلى توظيف مثلٍ عربي أو شعبي جاء كأنّما لم يُخلق إلا لهذا التركيب.

وإذا وقع قارئ المقامات على ألفاظ هي إلى الغرابة أقرب، ومن الحوشيّ أدنى، فما كان ذلك ليقطع على القارئ متعته، أو ينحرفَ به عن اقتناص المعنى.

فمن هنا تأتي «قيمة هذه المقامات الانتقادية اللاذعة التي ما إنْ تبدأ بقراءة أول سطر فيها حتّى تشدَّك، وتجذبك إلى ضفافها، وتوقظ في أعماقك حبك للغة العربية الأصلية والمشرقة..... فهي قائمة على أسلوب نقدي يخامر المواجع، ويكشف عن كل ما هو سلبي، من خلال أسلوب إلى اللغة العربية ومتذوقيها ودارسيها من خلال هذا الفن أجلَّ خدمة للأدب واللغة والناشئة، بعد أن كادوا ينسون هذا الفنَّ وجمالياته».22

إن ما سبق أن أوردناه من خصائص اتسمت بها مقامات الدكتور غازي طليمات يمكن جعلها خصائص لفن المقامات عامة، ويدفع بنا إلى الاعتقاد أن فن المقامات له أصوله وقواعده التي يجب توافرها فيه، ذلك أن هذا الفن يحتاج إلى تعاضد الموهبة، والمقدرة اللغوية، والبديهة الحاضرة، والخيال المجنح، والتصوير عبر ألفاظ اللغة وتراكيبها، ولذا يمكن أن نقول ونحن على درجة من الاطمئنان: لن يعود إلى المقامات ألقها، ولن يعود إلى هذا النمط الأدبي انتشاره ، فهيهات هيهات أن يتحقق وجود هذه الخصائص إلا فيمن هُيئ ليكون من رواده.

(Endnotes)
1 - النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك، ص 242.
2 - نفسه, ص 242.
3 - زَهر الآداب 1 / 307, وانظر: النثر الفني 3, 2.
4 - النثر ص 247.
5 - النثر ص 247.
6 - النثر ص 251 – وما بعد.
7 - مقامات ساخرة المقدمة, ص 6.
8 - أهل الكدية, عبد النافع طليمات, ص 5.
9 - المقدمة, ص 7.
10 - صدرت عن دار طلاس.
11 - صدرت عن دار الإرشاد للطباعة والنشر في حمص سنة 2009م. وأود ههنا الإشارة إلى أنَّ الدكتور عبد السلام العجيلي قد كتب مجموعة من المقامات ونشرها سنة 1963م, ولكنها – بحق – لا ترقى إلى مقامات الدكتور طليمات لا مبنى ولا معنى.
12 - الفند: الخطأ.
13 - ص 17.
14 - ص 17.
15 - ص 18.
16 - ص 19.
17 - ص 101.
18 - 102.
19 - ص 23-24.
20 - ص 55.
21 - ص 45.
22 - مقدمة, ص 12.

عن المبدع والحريّة «استحضار الشخصيّة التراثية»/تتمة/

التي عجزت عن تحرير شبر من الأرض العربية السليبة، بل قدّمت للعدو مزيداً من التراب المقدس!

«أمثل ساعة الضحى بين يدي كافور (....)
يومئ يستنشدني. أنشده عن سيفه الشجاع
وسيفه في غمده يأكله الصدأ!
وعندما يسقط جفناه الثقيلان وينكفئ
أسير مثقل الخطى في ردهات القصر
أبصر أهل مصر..
ينتظرونه . ليرفعوا إليه المظلمات والرقاع!
... جاريتي من حلبٍ تسألني «متى نعود»
قلت: الجنود يملؤون نقط الحدود
ما بيننا وبين سيف الدولة.
قالت: سئمت من مصر، ومن رخاوة الركود.
فقلت: قد سئمت مثلك القيام والقعود
بين يدي أميرها
لعنت كافوراً
ونمت مقهوراً..»4

ومن منّا لا يتذكر قصيدته المذهلة «أقوال جديدة عن حرب البسوس»، التي استحضر فيها شخصيات هذه الحرب: «كليب ـ الزير سالم ـ جساس ـ جليلة ـ اليمامة ـ البسوس» ليدين من خلالها اتفاق الصلح مع إسرائيل ورموز هذا الاتفاق التي باعت الأرض والدم والكبرياء:

«لا تصالح
فما الصلح إلا معاهدة بين ندّين
(في شرف القلب لا تنتقص)
والذي اغتالني محض لص
سرق الأرض من بين عينيّ
والصمت يطلق ضحكته الساخرة»5

وظلت القصيدة ـ التي امتدّت ديواناً كاملاً ـ تدور في الظاهر زمن جاهليّة العرب، وإن كان باطنها ودلالاتها تقدّم الحاضر العربي الرديء وشخوصه المهزومة التي وقّعت اتفاق الذل ـ كما أراد الشاعر أن يقول.

إذاً هل استطاع قمع حكام العراق ومصر أن يمنع السيّاب ودنقل من الإبـداع، وهل استطاع قمع سواهم أن يطفئ شعلة الإبداع عند عشرات الشعراء والروائيين والمبدعين في بلادنا العربية وغيرها؟! بالتأكيد لا؟! ربّما كان ذلك القمع نقمة عليهم ـ كما قلت في بداية مقالتي ـ لكنه جاء نعمة على الأدب وقرائه ومتذوّقيه وسيبقى الأمـر على هذه الحال ما امتد الاستبداد، وما عاش الإنسان!!

(Endnotes)
1 - ديوان بدر شاكر السياب، مجموعة أنشودة المطر، دار العودة بيروت 1971 – ص 463 .
2 - انظر ديوان عبد الوهاب البياتي، المجلد الثاني ، دار العودة، بيروت 1973 ، ص 36 – 37 .
3 - نفسه، ص38- 39 .
4 ديوان عبد الوهاب البياتي ، المجلد الأوّل ، دار العودة، بيروت ط3، 1979.
5 - نفسه، ص 706
6 - ثائر زين الدين، أبو الطيب المتنبي في الشعر العربي المعاصر، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 19990، ص 87
7 - ديوان البياتي، المجلد الثاني، ص 147 - 148
8 - نفسه، ص 151 – 152 .
9 - د. علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المُعاصر ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس، ليبيا 1978، ص 265 – 266
10 - ديوان البياتي، نفسه، ص 156.

نعي

رئيس اتحاد الكتاب العرب وأعضاء المكتب التنفيذي وأعضاء الاتحاد ينعون بمزيد من الأسى واللوعة عضو اتحاد الكتاب العرب الزميل

د. غسان الرفاعي

راجين الله عز وجل أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته, ويلهم أهله وذويه الصبر والسلوان.

إنا لله وإنا إليه راجعون

نعي

رئيس اتحاد الكتاب العرب وأعضاء المكتب التنفيذي وأعضاء الاتحاد ينعون بمزيد من الأسى واللوعة عضو اتحاد الكتاب العرب الزميل

نبيل حاتم

راجين الله عز وجل أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته, ويلهم أهله وذويه الصبر والسلوان.

إنا لله وإنا إليه راجعون

المراسلات:
الجمهورية العربية السورية - دمشق -ص.ب(3230) - هاتف 6117241-6117240
-فاكس 6117244- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير. هاتف الاشتراكات 6117242

ثمن العدد داخل القطر 15ل.س - في الوطن العربي: 0,5 $ خارج الوطن العربي1$ أو ما يعادله. تضاف أجور البريد للمشتركين خارج سورية

الاشتراك السنوي -داخل القطر:أعضـــاء اتحاد الكتاب العرب 500 ل س - للأفـــراد1000ل.س -وزارات ومؤسسات1217ل.س - في الوطن العربي:للأفراد300 ل.س أو30 $ - للوزارات والمؤسسات 4000ل.س أو40$-خارج الوطن العربي:للأفراد 6000ل.س أو 120$ - للمؤسسات7000ل.س أو140$ والقيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر اتحاد الكتاب العرب -دمشق ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الآراء والأفكار التي تنشرها الصحيفة تعبر عن وجهات نظر أصحابها

www.awu.sy
E-mail : aru@tarassul.sy

للنشر في الأسبوع الأدبي

يراعى أن تكون المادة:
ـ غير منشورة ورقياً أو عبر الشابكة.
ـ منضدة ومراجعة ومدقّقة مع مراعاة التشكيل حين اللـزوم، وعلامات الترقيم.
ـ لا تتجاوز المادة المرسلة /800/ ثمانمئة كلمة.
ـ يرفق مع المادة (C.D) أو ترسل عبر البريد الإلكتروني.
ـ يرفق مع المادة الصور المناسبة إذا لزم الأمر.
ـ لا يرسل الكاتب أكثر من مادتين.

إطلاق الخطة الوطنية للترجمة

أطلقت الهيئة العامة السورية للكتاب في مؤتمر صحفي عقد صباح الاثنين الماضي في القاعة الشامية بالمتحف الوطني بدمشق الخطة الوطنية للترجمة.

وتقوم الخطة على رؤيا تطمح إلى نشر ثقافة القراءة وتطوير الوعي الجمعي لتعزيز الانتماء الوطني والتمسك بالهوية مع الانفتاح على الثقافات الاخرى وإغناء المعرفة بنتاج الفكر الانساني في ميادين الآداب والفنون والعلوم سعيا إلى بناء الانسان المسلح بالفكر المستنير والمحصن ضد انحرافات التعصب

وتهدف الخطة الوطنية للترجمة إلى وضع عناوين تأشيرية وعناوين للترجمة من لغات عدة والتشجيع على الترجمة النوعية والمنهجية ضمن منظور وطني متكامل, إضافة إلى إغناء المكتبة العربية بأمهات الكتب من مختلف الثقافات واللغات وانتقاء عناوين مميزة لأدباء ومفكرين عرب سوريين وترجمتها إلى لغات الخطة التسع.

كما تهدف الخطة إلى توثيق الجهود الوطنية في مجال الترجمة لخدمة أكبر شريحة ممكنة من القراء مع تنظيم ورشات عمل وعقد مؤتمرات ذات صلة بالترجمة وربط فعاليات الخطة بالجهات والمؤسسات الدولية الراغبة بالتعاون.

أشارت الدكتورة لبانة مشوح وزيرة الثقافة في كلمة لها إلى أن إطلاق مشروع الخطة الوطنية للترجمة ضرورة وطنية لبناء الفكر الإنساني النير البعيد عن التعصب والغوغائية والتمسك بالهوية الوطنية والأخلاق الحميدة, لأن الثقافة أحادية اللون عقيمة لذلك ولا بد من الترجمة للاطلاع على ثقافات الشعوب الأخرى

وأكدت مشوح أن هدف الخطة هو بناء مخزون معرفي وأدبي وفني مترجم من لغات وثقافات متنوعة إلى اللغة العربية بشكل منهجي ومدروس يخدم حاجات الشريحة الأوسع من المثقفين العرب السوريين وينمي ثقافة القراءة ويساهم في بناء مجتمع المعرفة.

وتمنت مشوح من كل الجهات المعنية بالشأن الثقافي من جامعة دمشق ومركز التعريب واتحاد الكتاب العرب أن يمدوا المشروع بخبراتهم واختصاصاتهم وتقديم كل مقترح يؤدي إلى تطوير المشروع.

فيما أشار الدكتور وضاح الخطيب مدير عام الهيئة العامة السورية للكتاب إلى أن الخطة التي ستنفذ على مدى أربع سنوات لم يتجاوز الاعداد والتحضير لها أربعة أشهر, مشيرا إلى تشكيل لجان استشارية للغات المختلفة الألمانية والإنكليزية والفرنسية, ولجنة تضم لغات اخرى الايطالية والبولونية والتركية والروسية والفارسية إضافة إلى لجنة اللغة الاسبانية التي يتم العمل على تشكيلها, ويشرف على هذه اللجان جميعا منسقو لجان و19 عضوا من الخبراء والمترجمين والادباء والمفكرين السوريين.

الدكتور حسين جمعة رئيس اتحاد الكتاب العرب أشار في مداخلة قدمها خلال المؤتمر إلى أهمية هذه الخطة في تقديم خدمة ثقافية للمواطن باطلاعه على ثقافات الشعوب الاخرى, واقترح أن تتم ترجمة الكتاب الأهم فالمهم لتقييم التجربة لدى الجمهور ومتابعتها على أسس صحيحة.

معرض دوران أفلا.. مشروع تفكير في الأوبرا

بحضور وزيرة الثقافة د. لبانة مشوح افتتح في دار الأوبرا بدمشق الاثنين الماضي بحفل موسيقي ذي نفحة تراثية أخاذة معرض دوران 2 .. بعنوان (دوران أفلا.. مشروع تفكير), بمشاركة فرقتي «تهليلة» و«جوقة الفرح» و«كورال أفلا السوري» .. تضمن المعرض إطلاق مجموعة فنية جديدة تحت اسم (رموز للحياة) جوهرها العقل والعودة إلى الروحانيات لمؤسس مشروع «دوران» وصاحب فكرته الفنان التشكيلي بديع جحجاح .

ويستمد المعرض طاقته الفنية من خمس آيات قرآنية تتماهى مع الإنجيل.. نتج عنها لوحات للدراويش ورموز وحروفيات..

وفيلم قصير وتشكل المفهوم عبر (رحلة الألف إلى النون), هذه العلاقة العظيمة بين الخالق والمخلوق والمساحة الحرة الممنوحة من قبل الإله للإنسان للعودة إلى العقل, والغاية هي بناء رموز جديدة تحيا بيننا بلغة معاصرة تروم الجمال وتدعم الرسالة الإنسانية في (الفكر الإسلامي خصوصاً), والوصول إلى عمل فني يحمل ضمنه دلالات مستدامة من الطاقة الفكرية المغلفة بالجمال من أجل سمو الإنسان, وتستقي نبضها من الوضع السوري الراهن وجوهر المعرض هو(الأفكار ضد الرصاص..) وتصميم رموز جديدة بلغة معاصرة وسهلة تحيا بيننا يقبلها الناس كلهم والأطراف والطوائف وتوضح (أهمية النقطة فالحرف و الكلمة و النص وصولا إلى الرمز)

هذا ويستمر المعرض حتى 27 الجاري من الساعة 11 صباحاً, وحتى 6 مساءً.

ليس آخراً

غسان كامل ونوس

كأنّه يشبهنا!

ألأنه يشبهنا؟! كان الأمر كذلك؛ فهل ما يزال؟!

أول نسخة من كتاب ألف ليلة وليلة، باشرتُ القراءة فيها بعد مرور مئات الليالي، من دون أن أعلم العنوان؛ لأنّ صفحات عديدة كانت قد فقدت، وهذا لم يؤثّر على جاذبيتها وفتنتها، ولا على اهتمامي بما قرأت؛ كما لم يؤثّر في ذلك بعض هيئات كتب كثيرة تهرّأت بعض أوراقها، أو تهتّكت أغلفتها؛ ألأنّ ذلك كان يتساوق مع هيئاتنا وأرديتنا؟! لم يكن الكتاب زاهياً متلألئاً مصقولاً منوّعاً؛ وكان أليفاً؛ كذلك كانت موائلنا وأركاننا ودروبنا وموائدنا.. شهية! لكنه لم يتحدث كثيراً عن الفرح ولا عن الراحة، ولا السعادة، ولم يغب الحب وخيباته، ولا الأمل وأطيافه، ولم ترخص الأرواح فيه، ولا النفوس تذلّ، ولم يُفتقد الانتماء.. وكان هذا معادلاً في المشاعر والتطلّع والإيمان؛ دُهشنا حين قرأنا أفكارنا، وخجلنا من غرائزنا المكتوبة، وانشددنا إلى أفعالنا المستورة، وأحلامنا وأوهامنا المصورة.. بمبالغة ربما! إذن يعلم بها من كتبَ، ومن قرأ قبلنا، ووصل الكتاب عن طريقه، قريباً أو صديقاً أو.. بعيداً؛ وما تزال أصداء انفعالاتهم، وبقايا إثارتهم، وآثار لمساتهم ما بين أسطره المحتشدة، وصفحاته المكتظة، وألوانه الباهتة؟! فما الفائدة من التخفّي والسرّية والتحايل والمشاكسة.. وما الجدوى؟!

لم يكن للكتاب –مثلنا- حدود حادة تساعده على الوقوف أو الجلوس، ولا مكان يستقرّ فيه مترسّماً منتظراً مواعيد أو استئذاناً، أو مطالباً بطقوس خاصة وجلوس يليق؛ الحضن أدفأ، ورفقة الطريق والبيادر آنَسُ، وأوقات تحين آلفُ، طياتِ الليل ومدياتِ النهار، لا يعصو ولا يتذمّر من كثرة (الخلّان)؛ فهو خير جليس، ولا يقصّر، مشاغلاً ومواسياً ومحمّساً ومدارياً.. ومسلياً ومُلهياً حتى عن وظائف مدرسية، وإن كمّل منهاجاً وأغنى معارف، ومؤجّلاً مهماتٍ معروفة، ومواعيد عارضة، ومسؤولياتٍ ليست ضاغطة، ما يؤخر أعمالاً، أو يسرّع في أخرى، ويغيّب انتباه الراعي عن دواب تُغافلنا، فتجور على مزروعات تتناهض، وتتجاوز إلى أرزاق الجيران..!

وهو حمّال (الأسيّة)، يتحمل بعضاً من تبعات سلوكاتنا ومعاركنا التي أسهم في بعض تفاصيلها من خلال سِيَرٍ وأساطير، تخرج بعض عباراتها من أفواهنا، ونحن نترامح بالقضبان ونتطاعن بالعصيّ، نتبارز ونتناجز، ولا يقصّر في ذلك سوى الكسلان والعاجز!!

لم تختلف الحال كثيراً حين التقينا بلا تخطيط؛ بل في حاجة وتشوّف، في رفوف المركز الثقافي، فلا هيئته تبدّلت كثيراً، ولا مظهره تغيّر، ولا لونه ولا ما فيه.. لكنه الترتيب والتوضيب والاهتمام البادي بنظافته وتصنيفه؛ وما كان لنا –مثله- سوى تحمّل الظروف والصروف، ومحاولةَ تعقّبٍ للسمت، وتبيّنٍ للطريق، وتأمّلٍ للغاية.. وكان لنا المزيد من الحرص على متابعة الرفقة، وتواصل الجهد، واتصال العهد.

حين صار للكتاب مستقرٌّ مستوٍ، ومتّكأٌ إلى قرائن وحيطان، بعد زمان التشرذم والتكوّم، تأنّقَ وتلوّنَ، وازدهى وتَسَلفَن، وتصلّبت جلدته، واستوى قوامه في مجلسه، وأطال المكوث بلا أيدٍ تداعب متلهّفة، ولا أعين تلاحق تواقة.. حتى النسخة المدعمة المحمرّة من الليالي الألف والليلة الأخيرة، التي أُهدِيتُها من قبل مؤسسة معنيّة لقاء نشاط أدبي تحكيمي، بأجزائها العشرة، لم تُفتحْ!! كما الكثير سواها يشابهها، قد يقلّ حجماً أو يزيد بهاء!

كتاب آخر كنت قد تابعتُه بشغف من دون أن أعلم بأنه مجموعة قصصية، أو أعرف مؤلفها الرائد "محمد المجذوب" وعنوانها "صور من حياتنا"، إلا بعد حين.. وها هي مئات المجموعات الإبداعية في القصة والشعر، مرتبة ومنتظمة، ملونة ومصقولة في معظمها؛ مع أسماء ظاهرة ترسخت، وأخرى مستجدّة، وكتب أخرى في النقد والدراسات والبحوث، وأعداد وافرة من دوريات أدبية وثقافية وسياسية متعددة، لا تقلّ اهتماماً شكلياً، وتنوّعت مضامينها، تلفت النظر، جمعت بلهفة، وتكاثرت بلذة وإيلام؛ ما الذي ينتظرها؟! لا أحد يقاربها استعارة أو إهداء، لا أحد يسرقها؛ ليس لأنّها في غرفة جوانية؛ بل حتى لو كانت على قارعة الطريق!!

نعم؛ خزائن العرش متاحة في الشابكة، هناك كتب الكترونية، وإصدارات مفتوحة على الملأ؛ هل هذا هو السبب؟! هل ما تزال اللهفة محمومة لدى إصدار جديد أو طبعة متجددة، والإثارة نابضة في إيجاد كتاب منتظر، أو طال البحث عنه، ووهل الرعشة تحضر في مقابلة مؤلّف؟!

هل ما يزال الكتاب خيرَ جليس، أم أنه، مكتفياً بأناقته النافرة، وإطاراته الحابسة، ينتظر –وحيداً- رغم الكثيرين من أقرانه، جلساءَ خيّرين، يمنّون عليه باهتمام واحترام!!

كأنه يشبهنا!

●●●

ghassan.wannous@gmail.com
www.ghassan.wannous.com

الأسبوع الأدبي
جريدة تعنى بشؤون الأدب والفكر والفن
تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق
أسست وصدرت ابتداءً من عام 1986

المدير المسؤول: د. حسين جمعة
رئيس اتحاد الكتاب العرب

رئيس التحرير: غسان كامل ونوس

مدير التحرير: عياد عيد

المدير الفني: نضال فهيم عيسى

هيئة التحرير:
محمود حامد - د. أحمد علي محمد - نبيل نوفل - رياض طبرة